AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01071 0212

00-B5596

Put 13-7-00

OCLC
122726196

B12514457
13888997

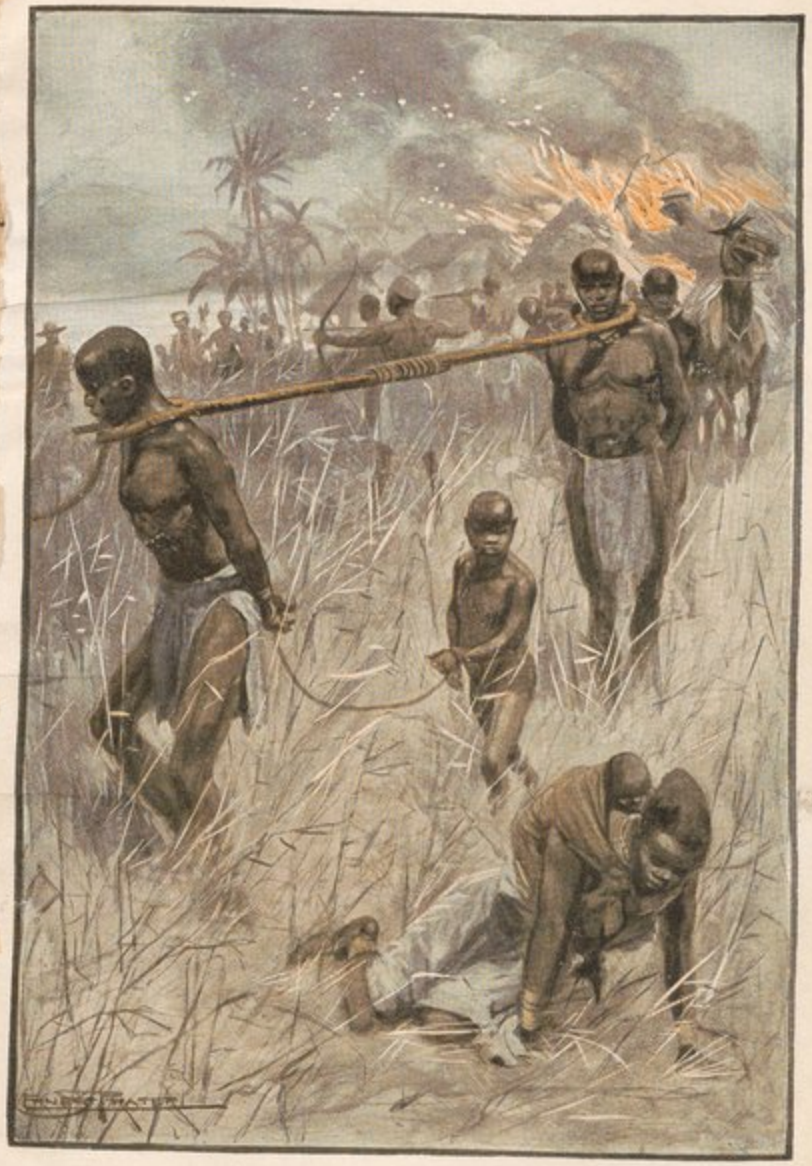

SLAVERY.

فظائع النخاسة

DT
731
L8
M8X
1925

مكتشف الطريق ومبطل تجارة الرقيق

مقدمة

حول الموقد في الغابة

حدث انه بينما كان المتوحشون في اواسط افريقيا يشعلون ناراً ذات
في احدى الغابات ليطردوا بواسطتها الوحوش الضارية التي تتهددهم
رة في تلك النواحي وكان بعض اولئك المتوحشين جالسين حول النار
هم واقعاً على الارض المظلمة خلفهم وهم في حالة سكونهم الا وقد سمعوا
اسد من ناحية وطشيش سقوط فرس البحر (العسنت) في نهر بجوارهم
قعة اشجار متكسرة بسبب مرور الفيل من أخرى ولكن اولئك المتوحشين
كترثوا لشيء مما حدث لانهم كانوا ملتفتين وشاخصين في وجه جندي
من الماكولولو الذي كان واقفاً وضياء النار ساطعاً على وجهه الاسمر
يحكي لهم عما اتاه اجداده في القديم من اعمال البسالة في الحروب واعمال
اء في صيد الوحوش الضارية ومن ضمن ما حكى ان رئيس قبيلة منهم
كان يحارب قبيلة اخرى استظهر على عشرين نفراً وذبحهم مع انه
مثخناً بالجراح التي اصابته من حراب الاعداء وانه قتل اسداً كان قد
مواشي القبيلة ولم يعاونه احد في قتله

ولما انتهى حديثه صفق له اولئك الابطال الذين كانوا يسمعونه باصغاء
توا الى داود لفنجستون (الذي كانوا يلقبونه عادة — القائد العظيم
س) وهذا تبسم علامة شكره لذلك الشخص الذي حكى حكايته
م اسرعوا فعملوا مظلات من افرع الاشجار ونام الواحد بعد الآخر

من اولئك الماكولولو تحت تلك المظلات بعد ما لفوا انفسهم في جلود الوحوش. ولكن قائدهم العظيم الابيض الذي رافقوه مسافة الف ميل بجوار الانهار وفي الغابات لم ينم بل جلس متطلعاً في جمرات النار الحمراء المتأججة امامه وكان ذا وجه ينم على ما هو عليه من القوة والشهامة مع سمرة خفيفة وعينين زرقاوين ولا يعرف للخوف معنى ولكن مما يؤسف له انه عض سمرة من اسد في زنده الايسر فحطم عظمه وترك آثار احدى عشرة سن اسنانه في ذراعه ومن ذلك الحين ترى ذراعه معلقاً على جنبه ولا يقدر ان يرفعه الا بكل ألم

ولكنه بينما كان جالساً متفكراً في ما سمعه من ذلك الرفيق الاسمر عن حروب قبيلته وعن المخاطرات التي صادفها جده في صيد الوحوش قد سرحت افكاره وتذكر ايام طفولته وصبوته وشخصت امامه صورة اناس اخرين جالسين حول النار في تلك الايام التي كان فيها صبياً في معمل (فابريقة) غزل القطن وعديم الخبرة جالساً مع اخوته واخواته حول وجاق البيت الذي كان في اسكوتلاندا وكلهم يصغون لجدهم ذي الشعر الاشعث (المجعد) وعيونهم محملقة فيه بينما كان يحكي لهم حكايات غريبة من عينة الحكايات التي سمعها من الافريقي الاسود — حكايات عن حروب الجبليين الهمجية وعن المكابدات التي كابدها ابطال الاسكوتلانديين المتعاهدين[1] Covenanters

وفي تلك الآونة قد جال في ذاكرته وتصورت امامه اصناف المحاذ والاخطار التي قاساها فيما بين تلك الايام التي سمع فيها حكايات جد صبوته وبين تلك الليلة التي سمع فيها البطل الافريقي الاسود بلغة غريبة

(١) هم جماعة عقدوا الخناصر على ان يعبدوا الله على اقوم سبيل فاضطهدوا و الى الجبال والصحاري وقتلوا او سجنوا

نته التي ولد فيها وفي غابة مشتبكة الاشجار في اواسط افريقيا بعيدة جداً
ن مسقط رأسه

وتذكر ذلك اليوم الذي فيه ودع اباه في غلاسكو وسافر الوفاً من
لاميال في المحيط الاطلانطيقي الى ان وصل الى جنوبي افريقيا ومن هناك
كب عربة تجرها الثيران واجتاز بها مئات الاميال في اواسط قارة افريقيا
ظلمة وتذكر انه بنى بيديه ثلاثة بيوت في سهول افريقيا وذكر السنين
التي قضاها تحت الشمس المحرقة معالجاً المرضى من الاولاد السود ومعلماً
والديهم القراءة وعبادة الله الحي وكيف انه حفر مجاري لجلب المياه الى
حدائقهم التي كانت ملفوحة من شدة القيظ . وعند ما تصور محاربته مع
الاسد وصيده للنعام والوعل والجاموس لاجل طعامه ضم قبضة يده اليمنى
وهزها علامة القوة والبسالة

ثم ان ذلك الرجل الابيض الرحالة العظيم (الذي لقبه السود بلقب
المغرم بالسفر) اذ افسح المجال لتذكاراته ذكر تلك الايام التي صرفها في
اسكوتلاندا وطنه وقابلها بتلك الآونة التي جلس فيها امام الموقد في
الغابة الافريقية وكيف انه مشى الوفاً من الاميال راجلاً وعبر صحاري
(كالاهاري) الرملية المحرقة اما راكباً أو في عربة تجرها الثيران الى ان وصل
الى بحيرة فكتوريانيانزا التي لم يرها انسان ابيض قبله

وذكر كيف انه سافر في زوارق صغيرة يصنعها المتوحشون من جذوع
الاشجار الكبيرة بان يجوفوها تجويفاً وكان يجلس على سطح الزورق فوق
اريكة خشنة ورفقاؤه الافريقيون يغنون اغانيهم الغير المألوفة عنده اثناء
تجذيفهم في النهر المتصاعدة ابخرته من شدة الحر . وكثيراً ما يرون فرس
البحر يبرز بظهره ومنخاره فجأة من الماء اشبه بجزيرة بركانية ويحملق فيهم

بعيونه المتوهجة كالنيران . وذكر كيف كان وهو في الزورق يراقب البر فيراه مسيجاً بنبات البردي المتكاثف أو بالبوص الفارسي ويسمع لغط العصافير الشديد كانه قد حصل في اوكارهم امر غريب يستفزهم للهرج والمرج . كما وانه كان يرى الحباحب البديعة المنظر ترفرف بين ازهار السوسن البري الارجوانية اللون . ورأى القرود الصارخة بينما كانت تتطوح وهي معلقة بايديها وارجلها واذنابها على النباتات المعرشة الملتفة حول الاشجار بهيئة حبل من الزهور والنباتات مدلى بهيئة قوس فوق اشجار الغابة . ويخالها الناظر انها حية من الحيات الهائلة — فقد عانى السفر مشياً مراراً كثيرة تحت تلك الاقواس وعبر السهول ميلاً بعد آخر وشهراً بعد آخر غريباً ومنفرداً ومع ذلك فقد كان مسروراً بكل ما صادفه من المناظر الغريبة والجديدة وكثيراً ما تورمت قدماه وتخرقت ملابسه وتنسلت بسبب الاشواك الحادة الموجودة بكثرة في الصحراء ولكنه كان يمتدح المشي كثيراً لانه قوى جسمه بكيفية غريبة وشدد عضلاته حتى صارت كانها حبال من فولاذ في قوتها التي لا تعرف التعب

ومراراً كثيرة احدقت به الاخطار من الوحوش المفترسة ومن الناس الهمج الذين كانوا يبغضون كل انسان اجنبي عن قبيلتهم ولم يميلوا اليه الا متى رأوا عينيه الدالتين على كمال الشجاعة والشهامة

ولا شيء يمكن ان يوقف الرحالة الافريقي البطل والمكتشف المغوار حتى ينال مبتغاه الى التمام ويتم مأموريته بالكامل ولسان حاله يقول — اني وان كنت بدون اخت شفيقة أو ابنة عطوفة لتسليني في وحدتي . وبدون رب أو ابن ليسندني . اذ اجول وحيداً في البر وبدون مأوى في البحر والبر فاني مع ذلك اسير بكل صبر واحتمال حتى انهي عملي الى التمام

وبعد ان ختم تصوراته بهذه الافكار نهض ورمى بعض الاخشاب في نار الموقد وعند ما تاججت وظهر لهيبها تناول علبة من الصفيح واخرج منها كتابه المقدس واذ جلس قرأ منه فصلاً على نور الموقد ثم جثا على ركبتيه وصلى كعادته لابيه السموي الذي باسمه ولاجل خاطره كان يهيء الطريق في افريقيا

وبعد صلاته التف بحرامه ونام والنار المتأججة في الموقد كانت تضيء بنورها في وسط الظلام وتخيف الوحوش الضارية التي كانت تملا الغابة بطوافها وصياحها

وكما حكى ذلك الماكولولو لرفاقه وهم جالسون حول النار اخبار شجعان قبيلته، ولما كانت قبيلتنا لا يوجد فيها من هو اشجع من بطلنا المغوار — الرحالة الشهير لفنجستون، فلنجلس الآن امام الموقد ونسمع حكايته المملوءة من اعمال البطولة وما قاساه من الاخطار وعاناه من الانعاب في سبيل مطلبه الشريف وغايته النبيلة

الفصل الاول

غلام في المصنع

انه في ليلة من ليالي الشتاء في قرية تدعى بلانتاير من اعمال لانار كشاير باسكوتلندا حيث لم يسمع في تلك الليلة الظلماء سوى هدير مياه نهر كليد المنصبة في ترعة لكي تدير آلات معمل نسيج القطن على جانب النهر الايسر وكانت تجري مياه ذلك النهر في طريقها الى جلاسكو والبحر تحت نوافذ البيت الذي يسكن فيه العمال — حدث انه تحت احدى تلك النوافذ في غرفة صغيرة لكنها انيقة تجمع زمرة من الصبيان والبنات حول جدهم الجبلاوي وكان اصغرهم جالساً على ركبتيه وان كان قد حان وقت نومهم الا انهم قد الحوا عليه طالبين منه ان يحكي لهم حكاية فصرخوا بصوت واحد قائلين — اخبرنا عن جدنا الاكبر والحرب

فرفع ابوهم نيل لفنجستون رأسه من الكتاب الذي كان يقرأه بسكوت وحملق الاولاد في وجهه منتظرين اجابة ملتمسهم وقالت والدتهم اغنس وهي جالسة بالقرب من الموقد والشمعة المنيرة

ومشتغلة بتصليح الثياب القديمة لتظهر كأنها جديدة — احكِ الحكاية للاولاد

فشرع الجد بالقصة عن ابيه في معركة كلودن التي سبق وقصها المرار الكثيرة واخبرهم بافتخار كيف ان والده وهو يحارب في جانب الملوك القدماء قد اعمل سيفه البتار في الدفاع عن البرنس تشارلي واعانه في ربح المعارك العديدة الواحدة تلو الاخرى فوق الجبال الاسكوتلندية لكن اخيراً في صباح أحد ايام الربيع قد كسر جيش الملك جورج صفوف الجبليين وفتّ في ساعدهم وقتل الجد الاكبر لهؤلاء الاولاد لانه قد فضل الموت على الفرار

ثم اومأت امهم برأسها الى ابيهم وتبسمت وقالت ان جدها كان يحارب مع صفوف اعداء جد ابيهم في تلك المعركة الهائلة التي جعلت اسكوتلندا تعيسة في الايام الغابرة وزادت على ذلك وقالت ان شعب ابيكم قد حاربوا شعبي ودمروهم اما الان فقد صرنا جميعاً عائلة واحدة (لأن نعمة المسيح ربطت الجميع)

وهكذا قد جلس الاولاد حولها وتطلعوا في وجهها معتقدين انه اجمل وجه في الدنيا ثم بدأت ان تخبرهم عن الايام التي فيها كانت

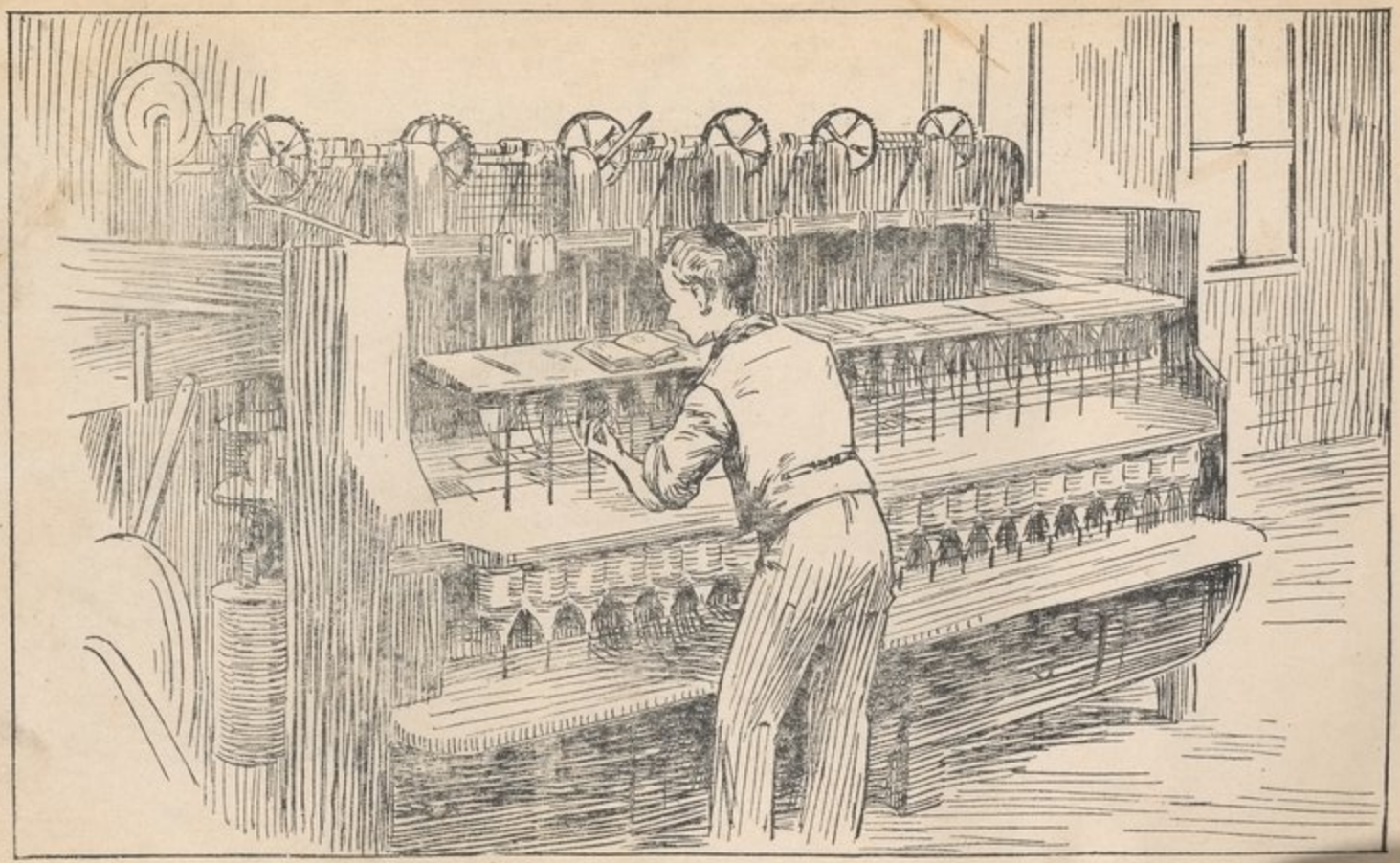

الشاب يتعلم اللاتينية وهو يصلح الخيوط في ماكينة الغزل

فتاة صغيرة وعن الايام التي قبلها بزمن مديد عندما كان جدها شاباً. فقالت لهم —

ان جدكم الاكبر كان يدعى جافن هنتر وكان عائشاً في عهد مذابح «المتعاهدين» الشنيعة ونظراً لان هؤلاء المتعاهدين قد رغبوا في ان يكونوا احراراً في عبادة الله على اقوم طريق رأوها لذلك قد طردوا من المستنقعات والقفار وقتل منهم من قتل وسجن منهم من سجن وكانوا يجتمعون معاً في تلك المستنقعات وسط الغابات واحياناً تكون الثلوج على الارض ورياح الشتاء الباردة تلعب بشعورهم وهم يعبدون الله بقراءة الكلمة والصلاة والوعظ واحياناً كان يرى الرقيب الذي كانوا يقيمونه المراقبة اورطة الفرسان هاجمة عليهم اثناء العبادة فتقتل الرجال والنساء او تسوقهم الى السجن. ثم تختم الأم كلامها بالقول — ولكن لن يحدث في اسكوتلندا مثل هذه الامور والحمد لله

وكان يقص عليهم والدهم في بعض الاحايين اخبار عمّيهم اللذين قد حاربا حروب بريطانيا في اسبانيا وان حرب واترلو المشهور قد انتهى بعد ولادة داود الصغير بسنتين وكان يتعجب اهل القرية للغاية من ان بعضاً من اهل جلدتهم قد كانوا في تلك الحرب العظمى

وكم يكون اندهاشهم لو عرفوا أنّ الغلام داود هذا الذي يشتغل في ماكينة نسيج القطن سيعمل اعمالاً باهرة حينما يكبر — اعمالاً تحدث فرقاً عظيماً في العالم عما احدثت كل تلك الحروب التي حارب فيها اعمامهم في اسبانيا ؟

ثم يخبرهم جدهم كيف انه هو وابوه واجداده قد سكنوا في تلك الجزيرة الصخرية التي تدعى اولفا وزرعوا في اراضيها عدة اجيال — تلك الجزيرة التي تعج خارجها امواج الاوقيانوس الاطلانطيقي وتتكسر على شواطئ الهبرايدز الوعرة

ان داود كان افضل غلام ولد في تلك العائلة (التي كان فيها ثلاثة صبيان وبنتان) في الالعاب والتسالي واكثرهم بشاشة فوق المائدة وقد ولد في ١٩ مارس سنة ١٨١٣ وكان يشبه والدته في كونه ذي عينين زرقاوين جميلتين لكنه كان يختلف عنها في انه كان ذا بدن صحيح قوي البنية . اما ابوه نيل ليفنجستون فكان تاجراً في الشاي ومعلماً ايضاً في مدرسة الاحد وكان محباً لقراءة الكتب فكان يقرأها كل مساء في بيته

وكان يلعب داود في الحقول هو واخوته واخواته اثناء الصيف

بين اكوام الدريس وفي بقية فصول السنة كانوا يلعبون بعض الالعاب الاخرى مثل البلياردو وغيره

وكان من عادة الوالد ان يغلق باب البيت عند غروب الشمس وسن قانوناً لاولاده بانه يجب على كل منهم ان ينتهي من اللعب ويدخل البيت قبل اغلاق الباب ولكن حدث انه في احدى الليالي كان داود ملتذاً باللعب كثيراً ونسي نفسه واتى الى البيت متأخراً فوجد الباب مغلقاً فلم يناد ولم يطرق على الباب بل بعد ما تناول كسرة خبز من بيت احد الجيران جلس على العتبة ناوياً ان ينام الى الصباح فلما فتشت امه عنه بلهفة وجدته على العتبة

ولما كان والدا داود فقيرين التزم داود ان يدبر معايشه بنفسه من صغر سنه فعند ما كان في العاشرة من عمره كان يستيقظ سحراً ويلبس ثيابه ويضع قبعته على رأسه ويخرج والظلام باقٍ الى ورشة نسيج القطن في بلانتاير — غلام صغير في العاشرة من العمر يشتغل بين رجال كبار — وعند وصوله الى الورشة كل صباح في الساعة السادسة يقف امام ماكينة غزل القطن التي تعين عليه مراقبتها فكان يوجد في تلك الماكينة بكرات عديدة تلف لفاً سريعاً والخيط ممتد من اول الماكينة الى آخرها . ومن حين الى آخر لا بد ان

ينقطع الخيط فعلى داود ان يربط طرفي الخيط معاً . فكان هذا العمل بسيطاً في حد ذاته ولا يسبب زعلاً فيستمر من السادسة صباحاً الى الثامنة مساءً

اما عقل داود لفنجستون نفسه فكان اشبه بماكينة مشتغلة في غزل الخيط وشغل راسه كان متقناً كشغل اصابعه فلم يترك افكاره متقطعة مطلقاً بل الافكار التي كانت فيه وهو في العاشرة من العمر امتدت ونمت كلما كبر وذهبت معه الى الاراضي البعيدة حيث ذهب . وكان يأخذ معه كتاباً الى المعمل ويسنده مفتوحاً على ماكينة الغزل ليأخذ منه لعقله بعض الخيوط ويشغله فيها وبينما كان يتنقل من اول الماكينة الى آخرها كان ينتهز فرصة فيقرأ منه جملة يكررها مراراً في روحاته وجيئاته او يصرّف كلمة في اللغة اللاتينية ويفتكر فيها اثناء العمل ويكرر تصاريفها مراراً حتى يحفظها غيباً اذ كان قد ابتاع اجرومية باللغة اللاتينية من بالانتاير بجزء من اجرته التي قبضها لاول دفعة واعطى باقي اجرته لأمه

وعند ما ينهي شغله اليومي في الفابريقة كان يذهب الساعة الثامنة مساءً الى مدرسة ليلية ليحاضر درسه امام احد الاساتذة ثم يرجع الى البيت وينكب على كتابه الذي يطالعه وكم من الليالي

صرفها جالساً وهو يطالع الى ان تقوم والدته في نصف الليل وتجده لا يزال مكباً على الدرس فتطفئ القنديل وترسله بسرعة الى سريره

وفي يوم العطلة كان يذهب مع اخوته في جولة طويلة فكانوا يتسلقون الصخور التي على النهر يبحثون عن نبات السرخس او الطحلب او يتجولون في الحقول وفي جوانب التلال يبحثون عن الجعلان والحباحب او ينزلون في المحاجر يجمعون الاصداف او في النهر ليستحموا او يصطادوا

ففي ذات يوم بعد ما صرفوا مدة في الصيد كان قد امسك داود سمكة من نوع «السلمون» وهذا النوع كان صيده محظوراً بأمر الحكومة لكنه لم يهن عليه ان يرميها في النهر ثانية ولذا وضعها داخل (بنطلون) اخيه تشارلي وبينما كان هذا ذاهباً الى البيت لاحظ الناس ذلك فظنوا بان رجل ذلك الولد وارمة بهذا المقدار فخنوا عليه وبهذه الكيفية كان يتجول داود واخوته فوق التلال وفي الوديان وفي الترع والغابات التي حول بلانتاير وهذه التجولات قد قوّت جسمه وجعلته يستطيع ان يمشي مسافة طويلة بدون تعب

ولما صار عمره ثماني عشرة سنة رفعه رئيس المعمل الى وظيفة غازل قطن بدلاً من ان يربط الخيوط المقطوعة . نعم ان هذا

العمل كان صعباً جداً على صبي صغير مثل داود لفنجستون الا ان اجرته اكبر وكان في حاجة الى النقود الكثيرة لانه ابتدأ ان ينسج خيوط افكارٍ لغرض خطير جداً فاتجهت افكاره لان يطيع قائده يسوع ذلك البطل المجيد وان يسافر الى بلاد بعيدة في سبيل مطلب شريف وغاية نبيلة

الفصل الثاني

الرفاه المتصاعد منه الف قرية

ان الاولاد الذين يتجولون مع خلانهم ويقفزون الحفر ويتسلقون الاشجار ويمشون الى المدرسة او الى محل الشغل لهم افكار اكثر مما يظن فيهم الناس الكبار — فقد يتصور الصبي نفسه قبطاناً او ضابطاً في مصلحة السكة الحديد او مفتشاً وقد تتصور البنت نفسها ممرضة او برنسيسة او فتاة قد انقذها احد الفرسان من ضيقتها . فاننا نتعجب مما سنصير اليه عند ما نكبر

وبينما كان داود في ماكينة الغزل كان عقله يغزل خيوطاً عجيبة وينسج من تلك الخيوط بساطاً سحرياً يحمله فوق الاوقيانوسات الى اراضٍ غريبة جداً فقد حمله هذا البساط في عالم الخيال الى اماكن عجيبة بعضها لم توجد ولن توجد وبعض التجوالات جعلته ملكاً على قلعة في الهواء انما السفرة السحرية التي كان يحبها اكثر من سواها هي اختراق قارة اوروبا ومملكة الفرس وجبال حملايا وبورما الى بلاد الصين التي يقطنها الجنس الاصفر الذين يظنون ان مملكتهم هي في منتصف العالم

وكان قد سمع داود عن بطل يدعى غطزلاف الذي سافر الى ذلك الجنس الاصفر وارتدى بملابسهم الصينية واعطاهم كتباً للقراءة وشفى المرضى والمجروحين منهم وبشرهم بمحبة يسوع العجيبة . فغطزلاف هذا — الطبيب المرسل في بلاد الصين صار بطل داود لفنجستون ذلك الغلام الواقف امام ماكينة الغزل في اسكوتلاندا فلو سأل ساحر داود وقتئذ وقال له اطلب اعظم رغائبك التي ترغبها في هـذا العـالم فستعطى لك لاجاب على الفور قائلاً — ان جل مرغوبي هو ان اذهب الى الصين واشتغل مع الدكتور غطزلاف واصير مثله

وقد سبق داود لفنجستون فعرف ان لغطزلاف نفسه بطلاً يتمثل به وذلك البطل المجيد قد جاء الى العالم كمرسل للتبشير وكطبيب للشفاء وان هذا البطل هو الذي ارسل غطزلاف الى الصين . وكان قد تعلم داود كثيراً عن هذا الطبيب العظيم وكان قد تعلم ان يذكر اسمه كثيراً منذ طفوليته عند ما كان يركع كل مساء بجانب امه ويصلي ليسوع صلاة النوم . فلما كبر داود واوشك ان يصير شاباً شعر ان افضل شيء في العالم هو ان يتبع مخلصه ويصير طبيباً مرسلاً فقـال لنفسه — ان الله العظيم له ابن وحيد وارسله الى الارض

'He bought a Latin Grammar with a Part of his First Week's Wages.'

لفنجستون يشتري اجرومية من اجرته الاولى

كطبيب مرسل فافضل شيء لديّ هو ان اتبع آثار المعلم العظيم والمرسل العديم النظير الذي ظهر في هذا العالم

هذا هو مطلب داود ومبتغاه الوحيد ولكن انى يكون له هذا المطلب وهو ليس الا غزّالاً صغيراً ووالداه فقيران فان الحال يحتاج الى نقود لان صيرورة الانسان طبيباً يحتاج الى صرف سنوات في مدرسة الطب ولا يوجد ساحر صالح يطوح بعصاه فيجعل كل شيء يتم حسب مرغوبه ولذلك عوّل داود على نفسه بمساعدة الله فسنرى كيف تم مرغوبه على ما يرام

انه عند ما عزم على التوجه الى البلدان البعيدة ليبشر بخبر ذلك الطبيب العظيم لاولئك الشعب الذين لم يبلغهم خبره قط لم يعلن عزمه هذا سوى لوالديه وقسيسه فسرّ الثلاثة بذلك سروراً عظيماً وعينا والدته اللامعتان قد اظهرتا الألم والفخر معاً اللذين تشعر بهما الامهات حين يسافر اولادهن من اوطانهم لاول مرة لمواجهة الاخطار فيالها من شجاعة غريبة قد اظهرتها في تسليم ابنها بفرح بهذه الصورة ويالها من شجاعة ان داود نفسه يوجه افكاره نحو مخاطرات عظمى كهذه

فقد حصل مرة وهم حول الموقد في بيتهم في بلانتاير ان قال

داود لوالديه انني اشتغل في معمل الغزل طول مدة الصيف واذا كنت احترس في توفير اجرتي فذلك يكفيني لمصروف الشتاء عند ما احضر المحاضرات الطبية في جلاسكو

ففي ذات يوم من ايام الشتاء الثلجة قام نيل لفنجستون وابنه داود بلانتاير وذهبا راجلين الى جلاسكو ومشيا مسافة سبعة اميال على طريق كلها ثلوج وهما يصمتان احياناً واخرى يتحادثان عما يجب على داود ان يتصرف كطالب علم وعن مقدار مصاريف سكنه الواجب دفعها عندما يصلان الى جلاسكو . فبعد ما وصلا وبحثا طويلاً في المدينة متنقلين من بيت الى آخر وقارعين منزلا بعد آخر تيسر لهما منزلا رخيص الاجرة جداً فنزل فيه داود اما والده فقفل راجعاً الى بيته وتركه وحده وفي اليوم التالي ذهب داود الى مدرسة المحاضرات ودفع المصاريف وقدرها اثنا عشر جنيهاً وهو المبلغ الذي كان قد وفره من أجرة شغله وكتب لاحد اصدقائه تلك الليلة قائلاً — انني قد شعرت حقاً بالوحدة عند ما فارقني أبي ورجع الى بيته — وزاد على ذلك فقال — انما عزمت على ان يكون لي قلب جسور لارقى به الجبل الصعب الذي امامي

وفي ذات يوم وقف داود في جلاسكو وبيده مكتوب

معنون لجمعية لندن المرسلية وفيه انه مقدم نفسه للجمعية لاجل الخدمة في الحقول الاجنبية وبعد ما ارسله بطريق البريد اتى اليه الرد يقول له ان يحضر الى لندن لمقابله اللجنة وما اشد دهشة هذا التلميذ لانه لاول مرة في سنة ١٨٣٨ قد مشى في شوارع لندن ورأى مناظرها العجيبة . اما عن منظر الشوارع وقتئذ فيمكننا ان نستخلصه مما كتبه تشارلس لام الذي توفي سنة ١٨٣٤ وكان عائشاً وقتما كان داود لفنجستون غلاماً فقد قال في عرض كلامه عنها —

«ما ادهش مصابيحها في الليل وما اكثر صياغها المثرين ومخازن الفواكه والاثمار ودكاكين اللعب وتجار الاقمشة الحريرية والصوفية وغيرها والادوات المعدنية وحوانيت صانعي الفطائر المتنوعة وما اعجب ساحة كنيسة مار بولس وساحة الاستراند وتشارنج كروس وما اغرب ذلك الرجل الراكب الحصان الاسود الواقف في وسط الساحة»

وفي احد تلك الايام دخل داود الى دير كنيسة وستمنستر العجيب حيث دفن اعاظم الملوك والفرسان والقديسين وأبطال المملكة البريطانية . وعند ما كان يتأمل تلك التماثيل الرخامية والشبابيك الملونة بالالوان الكثيرة كان يقول في باله ما ابهى ان يعمل

الانسان اعمالاً كاعمال هؤلاء النبلاء ! وهو لم يعرف وقتئذ بل لم يدر في خلد احد وهو يراقب ذلك التلميذ ذا الشعر الاسود الظاهرة عليه سمات البسالة والاقدام وهو واقف في ساحة الدير — انه سيأتي يوم فيه يجتمع اعاظم الناس في طول البلاد وعرضها حتى يملأوا كل ركن في تلك الساحة عند ما ينوح العالم على لفنجستون وهو محمول الى مرقده الاخير تحت سقف تلك الكنيسة عينها

فعمدة جمعية لندن المرسلية اخبرت لفنجستون انهم يريدون منه ان يتمرن في محل يدعى تشبنج اونجار بجوار لندن واذا نجح في التمرين حينئذ يقبلونه كمرسل وفي اثناء وجوده هناك حدثت معه مجازفة طفيفة بينت ما في ذلك الشهم من الجراءة والاقدام اللذين حملاه عشرة آلاف ميل في البر والبحر في المستنقعات والغابات في القفار والعواصف — وذلك انه في احد ايام نوفمبر قام لفنجستون في صباح كاه ضباب وخرج من بيته في اونجار ومشى طول الطريق الى لندن ليقابل احد اقارب والده فبسبب الضباب والظلمة الحالكة ضل الطريق وسقط في بؤرة فتلطخت كل ملابسه ولما خرج منها بعد الجهد مشى مسافة سبعة وعشرين ميلاً الى لندن وعندما وصل اليها اخذه قريب والده وطاف به في الشوارع ليريه مناظر المدينة

ولما كان لفنجستون قد مشى نيف وثلاثين ميلاً اخذ في الرجوع الى اونجار فمشى السبعة والعشرين ميلاً مرة ثانية ولم يصل الى الطريق الشمالية الكبرى حتى رأى على قارعة الطريق بقرب ادمنتون سيدة مطروحة على الارض ومغمى عليها فكانت قد قذفت من عربة فيتون صغيرة اثناء سيرها فاغمي عليها فحملها بمعاونة آخرين الى بيت بالقرب من ذلك المكان وفحصها كطبيب ووصف لها الدواء اللازم ثم عاد الى المسير وهو منهوك القوى وبعدما سار عدة اميال ضل طريقه في الظلمة وبالكد كان يقدر ان ينقل قدماً بعد الاخرى وشعر انه ناعس للغاية ولكنه لم يجرأ على ان ينام على الطريق في تلك الليلة الندية الباردة وبعد ما مشى قليلاً وجد عنوان (يافطة) فوق سارية موضوعة كدليل لارشاد المارة فتسلقها كأنها شجرة وقرأ الاسماء التي على ذلك العنوان على نور النجوم فرجع قافلاً الى الطريق الحقيقية حتى وصل الى اونجار في نصف الليل اي بعد ما قام منها باحدى وعشرين ساعة وكان قد مشى على قدميه نحواً من ستين ميلاً وكان تعباً للغاية ووجهه ابيض كالورق فبعد ما ناوله زميله فنجان لبن وكسرة خبز نام بدون حركة مدة اثنتي عشرة ساعة

وبينما كان لفنجستون في اونجار كان يتجول مع رفيق له اسمه

اسحق تايلر وهذا كتب عنه بعد ذلك باربعين سنة وقال — «انني اذكر خطواته التي كان يمشيها فقد كانت خطوات معتدلة لا مسرعة ولا بطيئة لا عجولة ولا متراخية التي معناها الوصول الى الغرض المقصود» . وقال عنه آخر — «ان النار والماء وجدران الحجارة لا تصد لفنجستون عن السير» . ومع ذلك فان الطريق قد اوصدت امامه كما بماء ونار وجدران من الحجارة اذ انه في الفرصة التي عزم فيها على الرحيل قامت حرب شنعاء في الصين (البلاد التي كان قد عزم على التوجه اليها) فماذا يفعل ؟

حدث بعد ذلك انه سمع في جمعية بعض المرسلين عن شخص يدعي روبرت موفات الذي قابله فعلاً في ما بعد فرآه قوي البنية طويل القامة طويل اللحية ثابت المحيا ذي عينين حادتين وكان قد رجع مؤخراً من سهول افريقيا وجبالها — افريقيا التي هي اوسع بلاد مجهولة على وجه البسيطة ولم يكن يعرف عن قلبها شيء البتة وكان يظن الناس ان داخلية افريقيا كلها قفار في قفار والخارطة المرسوم عليها قارة افريقيا لم يكن فيها شيء مرسوم في وسطها بل جزء كبير منه متروكاً خالياً بدون رسم بلاد أو اجيال أو انهار وفي الحقيقة كان في تلك الازمان القديمة كما يقول بعضهم — ان

الجغرافيين كانوا يملأون الفراغ في خارطة افريقيا بصور المتوحشين وعوضاً عن رسم البلاد في الصحاري الغير المسكونة كانوا يرسمون صور الأفيال

ولما كان موفات يتكلم عن افريقيا قال للفنجستون يوجد سهل متسع الى جهة الشمال حيث قد رأيت في شمس الصباح دخان الف قرية لم تطأها قدم مرسل قط . فاجابه لفنجستون على الفور — انني ذاهب الى افريقيا تواً. ووافق مديرو الجمعية المرسلية بلندن على ذلك وسافر من لندن الى اسكوتلاندا في شهر نوفمبر ووصل الى بيته في بلانتاير ليودع اهله ولم يستطع ان يصرف هناك سوى ليلة واحدة قبلما يبحر منها الى افريقيا فاقترح داود ان يصرفوا الليل كله جالسين معاً فعارضته امه (التي طالما كانت ترغمه على النوم وهو تلميذ مكب على كتبه في نصف الليل) وقالت — كلا بل انت في حاجة الى الراحة

ثم استيقظت تلك العائلة في صباح ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ ووضعت امه غلاية القهوة فوق النار وبعد القهوة تناول داود كتابه المقدس وقرأ المزمور المائة والحادي والعشرين ليعزي والديه به عندما يفتكرون عن وجوده في افريقيا فقرأ بصوت مسموع قوله

تعالى «لا تضربك الشمس في النهار ولا القمر في الليل . الرب يحفظ خروجك ودخولك من الآن والى الدهر» ثم قبلته امه واخوته ولبس ابوه اخر ما عنده من الملابس ثم خرج مع داود ومشى معه كل الطريق الى جلاسكو وفوق ميناء بروميلو قد ودّع كل منها الآخر ورجع الوالد الى بلانتاير اما ابنه فقد سار بقدم ثابتة طول الممشى الى ان ركب السفينة ولم يرَ احدهما الآخر بعد ذلك

المنزل الذي ولد فيه لفنجستون في بلانتاير

الفصل الثالث

بين مخالب الاسد

في منتصف الليل فوق ظهر المركب التي تدعى جورج قد اضاء القمر في سماء صافية فوق مياه البحر وهب هواء المحيط الاطلانطيقي فوق قلوع المركب محركة اياها وقد أبهج هبوب الهواء العليل في ذلك الليل الصافي بعد نهار شديد الحر — رجلين جالسين امام آلات غريبة الشكل احدهما كان القبطان والآخر لفنجستون الذي كان محباً للاستطلاع والسؤال كباقي الاولاد وكان يستفهم من القبطان عن الكيفية التي بها يسيّر مركبه فوق مياه الاوقيانوس الواسعة المدى بالنظر الى القمر والنجوم وباستعمال تلك الآلات النحاسية العجيبة ثم بحل مسائل حسابية يعرف منها الطريق الواجب السير فيه

فجعل القبطان يقول له — لكنك لست في حاجة الى معرفة كل هذه الامور . انك لست ذاهباً الى افريقيا لكي تصير بحرياً بل مرسلاً اي لايكون لك سوى بيت وحديقة وكنيسة وسيقول لك الافريقيون الذين تعيش معهم عما يلزمك بخصوص شغلك

فكان لفنجستون يجيبه قائلا — لقد قال لي موفات عن سهل متسع قد رأى منه دخان الف قرية لم تطأها قدم رجل ابيض قبل الآن وتوجد برية الى الشمال من ذلك السهل والى الشمال من تلك البرية لا يعرف احد عنه شيئاً فقد يمكن ان اتوجه الى حيث لم يذهب احد من البيض قبلا وأوجد في تلك البرية التي لم تطأها قدم واوجد في الغابة اشبه بمركب في البحر الوسيع المدى فما لم اعرف جهة سيري بآلات نظير هذه وبواسطة النجوم قد اضل طريقي وهكذا قد ابحروا جنوباً ومروا بخط الاستواء ولفنجستون يدرس طول مدة السفر

فبعد ما مروا بمدينة الراس وداروا برأس الرجا الصالح ووصلوا الى خليج ألجوا حيث ينتهي الاوقيانوس الاطلانطيقي ويبتدئ الاوقيانوس الهندي نادى البحارة قائلين — الآن قد وصلنا الى ألجوا. وهناك رست المركب وخرج لفنجستون الى البر بعد سفر ثلاثة اشهر في المركب فوق الاوقيانوس والآن عليه ان يسير سبعماية ميل في سهول افريقيا في عربة كبيرة تجرها الثيران او يمتطي حصاناً وقد تمتع بهذه السفرة كصبي خارج لاول مرة لاجل التنزه مع انها كانت محفوفة بالصعوبات الغير المنتظرة وبالطوارئ المجلبة

للضجر والتعب وكان يجر عربته ذات القرقعة العالية سرب من الثيران الكبيرة وتصعد به تلال افريقيا الجنوبية والجبال الوعرة حيث كانت تسير بكل صعوبة ثم تنزل به الى سهول نهر اورانج فعند خوض الماء تغوص العربة في الطين حتى يصعب جرها فمن ثم تجمح الثيران ويتشوش نظامها وينقلب بعضها حتى تصير رؤوسها الى جهة العربة وأذنابها الى الامام وينبرم بعضها ويتدور كأنها تريد ان تقلب العربة وبعد الصياح عليها بأصوات عالية وقرقعة السياط (الكرابيج) الكثيرة تعتدل في اماكنها وتسير الى الشاطئ الآخر. وكان يرى بجوار الشاطئ العصافير الزنانة تنزرق وتلمع في الشمس وتمتص العسل من الزهور وفي بعض السهول المملوءة بالاعشاب وذات الاشجار المتفرقة كان يرى النعام الهائل واطول من قامة الرجل يركض بسرعة اكثر من ركض الخيل ورأى ان الوعول تقدر ان تثب في الهواء الى علو عشر اقدام عند ما تسمع صوت طلق ناري ورآها عندما كانت تتناطح فتهشم رؤوس بعضها البعض

وحينما تتعب الثيران كثيراً كانوا يصيحون فيها ويهوشون عليها بالكرابيج فتسير بضعة ساعات مع شدة تعبها لانه على كل حال كان لا بد ان يقطعوا البرية الصخرية ويصلوا الى نهر او بئر ماء

ليبيتوا عندها وعند ما يصيح صائح قائلاً — هنا بركة ماء كبيرة — ترى الثيران جميعها تسرع في الركض عند ما تشم رائحة الماء

ثم يصدر الامر برفع الانيار عن الثيران وتضرب الخيام للمبيت فيجري الرجال لحل الثيران من انيارها ويذهب الواحد ليحضر بعضاً من الحطب اليابس وآخر يجهز النار ثم يوضع ابريق ماء كبير فوق النار وترمى قطعة كبيرة من لحم الوعل الذي اصطادوه في النهار على جمر النار وبعد غروب الشمس بنصف ساعة عند ما يتغير الطقس ويعقب حر النهار برد الليل حينئذ يشربون القهوة ثم يتعشون وبعد العشاء يجلسون حول النار ويأخذون في ان يحكوا حكايات بعضها عن المخاطرات التي قاسوها في يومهم وبعضها عما ينوون ان يجروه في يوم غدهم وبعد ما يتعبون ويلعب الكرى في عيونهم يذهبون للنوم فينام لفنجستون في سريره الذي في العربة ويلتف بقية الرجال في احرمتهم على الارض

وعند ما يستيقظون سحراً يشربون قهوة لذيذة وتشد الثيران في العربة ويأخذون في السير فتجر الثيران العربة مدة اربع او خمس ساعات وعند اشتداد حرارة الشمس يكفون عن السير ويرتاحون ثم يطبخون طعامهم بالعجلة ويجلسون تحت ظل العربات ويأكلون

ثم يقومون ويسيرون في الصحراء حتى يصلوا الى الماء فيحلون ليلتهم وهكذا الى أن وصلوا بعد مدة الى كورومان وهو المكان الذي سكن فيه موفات عندما كان في افريقيا وكان موفات وقتئذ في الاجازة بانكلترا وكرومان هذه التي كانت قبلاً بقعة جرداء قفرة قد صارت بقعة بهجة مغروسة بالاشجار المثمرة والكروم وكلها حدائق باسقة . وعلى البعد من كورومان بنحو ميلين في سفح تل قاحل ينفجر ينبوع ماء من صخرة صلداء ويجري في نهر ضيق ويفيض في وسط كورومان وقد حفر المرسلون اخدوداً على طول البقعة لجر المياه بجوار مساكنهم ليستعينوا بها على ري حدائقهم وموفات نفسه قبلما يصير مرسلاً كان بستانياً في هايليغ في شيشاير فاستعمل مهارته كبستاني في ان يجعل كورومان اجمل كثيراً مما كانت

وقد اراح لفنجستون ثيرانه بعد سفر سبعماية ميل الى كورومان التي كانت مركز جمعية لندن المرسلية في افريقيا ولم يقدر ان ينسى ما كان قد قاله له موفات عن الالف قرية فعزم على ان يجد مكاناً للاقامة شمالاً ابعد مما وصل اي مرسل آخر بمائتي وخمسين ميلاً وتكون هذه اول رحلاته بعد ما تعود على تناول عشائه من لحم الكركدن (الخرتيت) الصلب

ففي احد الايام اذ قام لفنجستون للسفر صباحاً ترك القرية التي كان فيها وسافر اثني عشر ميلاً ثم استراح وأراح ثيرانه واذ التفت الى ورائه رأى ان فتاة افريقية في الحادية عشرة من عمرها قد ركضت ورمت بنفسها تحت العربة. ولم يكن لهذه الفتاة اب او ام او اخت بل اختطفتها قبيلة غريبة ليبيعوها كامرأة عند ما تبلغ السن المناسب. وكانت سئمت عيشتها كأمة وكانت قد رأت وجه لفنجستون الباسل والشفوق عند ما كان يعالج المرضى في القرية التي كانت ساكنة فيها فقد ركضت وراءه والتمست منه ان يحميها فناولها طعاماً لتأكل وفرح عندما رآها مسرورة. ولكنه عاد فرآها تنتحب كأنها مكسورة الفؤاد واذا رجل حاملاً بندقية قد جاء وراءها فنزعت عقودها الخرزية وقدمتها للرجل متوسلة اليه ان ينصرف عنها واسرع رجل وطني متنصر اسمه پومار وقام لنجدتها وحمايتها ولقد كان پومار هذا ابناً لاحد الرؤساء فاضطر حامل البندقية الى ان يرجع على عقبيه

اما لفنجستون فقد اخذ البنت وخبأها في آمن زاوية في عربته قائلاً ولو جاء خمسون نفراً لاخذها لما استطاعوا ذلك

اما القبائل المتوحشة الساكنة في اطراف افريقيا التي كان

لفنجستون مسافراً فيها فكانوا يلقبون انفسهم باسماء حيوانات فيقولون انهذا الرجل تابع لقبيلة الذئب وسكان ليبيلول التي وصل اليها لفنجستون بعد ما ترك كورومان كانوا يسمون انفسهم قبيلة التمساح وكان الرئيس روبي حاكما عليهم وقد مكث بينهم لفنجستون ستة اشهر ولما لم ير احداً منهم يتكلم بالانجليزية اجتهد وتعلم لغة قبيلة التمساح جيداً وعرف كل معيشتهم داخل اكواخهم ورأى كيف ان النساء يكددن انفسهن في العمل بينما ازواجهن في صيدهم وقنصهم وكانوا يفتكرون انه عار على الفتاة اذا كانت تبكي . فمرة وهو يخرج شوكة من رجل فتاة قالت لها امها انتِ الآن امرأة وعيب على المرأة ان تبكي

وكان يرى الغلمان السمر الضخام الجسم وذوي الشعور المجعدة يتقلبون في الرمل اثناء لعبهم او يجلسون بهيئة دائرة يلعبون بعض العابهم الصبيانية او يذهبون بين الشجيرات وينصبون فخاخاً لصيد العصافير

ان قبيلة التمساح (الباكوفيا) شجعان ولكنهم شرسوا الاخلاق فرأى انه اذا ابطات القبيلة الواحدة محاربتها الشرسة مع

القبيلة الاخرى يكونون جميعاً كباراً وصغاراً اكثر سعادة واوفر هناء . . .

وجميعهم كانوا عائشين في رعب تحت سلطة الاطباء الدجالين وكانوا يظنون ان اولئك الاطباء يمكنهم ان يشموا رائحة السحر وعليه فهم يقدرون ان يسببوا القتل لكل من يكرهونه متى اتهموه بانه سحر بهيمة الرئيس التي قد ماتت . فرأى لفنجستون ان افضل طريقة لمنعهم عن مقاتلة بعضهم بعضاً ولتحريرهم من رعب الاطباء الدجالين ومن الشياطين هي ان يعلمهم عن وجود اب واحد لجميعهم وهو الله وانه تعالى يريد ان يكونوا جميعاً اخوة

ولم تكن قرية ليبيلول هذه بعيدة كثيراً عن صحراء كالاهاري ومع وجود ترعة بجوار القرية فكان ينزل عندهم مطر قليل وطبيب قبيلة التمساح الدجال الذي كان يسمي نفسه صانع المطر حاول مراراً ان يجلب المطر لكنه خاب فقال لفنجستون للرئيس انه يستطيع ان يجلب الماء لبساتينهم . ومع انه لم يكن له سوى معول (فاس) واحد لا غير وبدون مقبض (يد) ولكنه بدأ هو ورجاله يحفرون قنالاً صغيراً جرت فيه المياه من الترعة الى داخل البساتين وخارجها فمن ثم بدأت الخضروات على اصنافها تنمو فضحك

الطبيب الدجال كثيراً مما عملته مهارة ذلك الاجنبي ولم يستطع هو ان يعمله بسحره

وبعد ما حفر لفنجستون القنال لقبيلة التمساح وبنى بيتاً جديداً سافر سفرة طويلة الى الشمال في وسط ناحية من صحراء كالاهاري ولما كان مسافراً يوماً ما الى قرية لقبيلة تدعى بكعة قيل له ان يحترس لانهم قد سبقوا وقتلوا احد التجار المسافرين في جهتهم ومع ذلك سار لفنجستون بين اولئك القوم بدون اقل خوف بل كان يجلس ويأكل معهم ثم ينام نوماً هادئاً بين اولئك القتلة فلم يضعوا عليه يداً

وبينما كان لفنجستون في هـذه السفرة قد كان يحتاط بعربته كثيرون من العمي والعرج والمرضى طالبين من ذلك الطبيب الابيض الماهر ان يشفيهم وكان يسود لفنجستون على الافريقيين ليس برفسه اياهم أو ضربه لهم بالسياط كما كان يعمل معهم كثيرون من البيض بل بعيشته بينهم شجاعاً في وقت الاخطار وشفوقاً عليهم في مرضهم وكان يضحك معهم اثناء تعليمه اياهم كيفية سقي بساتينهم ومع ذلك كان يتكلم بكل جد ورزانة عند ما يخبرهم عن رداءة عيشتهم وعن الكيفية التي تجعلهم شعباً قوياً وطاهراً

ولما رأوه انه يقدر أن يمشي ويركب ويصيد ويعوم مثلهم بل
افضل منهم صاروا يعتبرونه ويحترمونه ومرة وهو سائر مع رفاقه
السود بين القبائل التي على طرف صحراء كالاهارى وكانوا سائرين
راجلين لان الثيران كانت تعبة سمع احدهم يقول للآخر همساً —
انه ليس قوياً وجسمه نحيف ولا يظهر سميناً الا وهو لابس ملابسه
الكثيرة هـذه وانه لا بد ان يعيا ويكل بعد قليل . فعند ما سمع
لفنجستون ذلك هاج فيه دمه الجبلي وقد اعانه الآن سيره الطويل
على جبال اسكوتلاندا لانه كان في استطاعته ان يسير مع اولئك
الرجال في منتهى سرعتهم يوماً بعد آخر فوق التلال وفي وديان
جبال بكعة ولما استكدهم تعجب منه رفاقه الافريقيون واستعطفوه
طالبين منه ان يسير بهم على مهل

وحينما كان لفنجستون يطوف حول تلك القبائل اذا برئيس
افريقي قوي وشرس كان قد طرد كل اصدقائه القدماء اي قبيلة
التمساح من ليبيلول حيث بدأ في بناء بيت مرسليته وحفر القنال
فقرر ان يمضي الى شعب آخر — شعب البخاتلة اي شعب القرو
فلما سأل لفنجستون رئيس البخاتلة عما اذا كان يريد ان يأتي ا
قبيلته ويكون مرسلاً بينهم رفع يديه جزلاً وقال — يا ليتك تأ

الينا فانني ارقص طرباً اذا اتيت واجمع كل شعبي ليهيئوا لك حديقة

لكن قبل ان يحل لفنجستون في قرية هـذا الرئيس سافر سفرة اخرى مسافة اربعماية ميل ممتطياً ثوراً كبيراً وهـذه كانت اول سفرة من نوعها وجلد ثور السفر كان رخواً للغاية فاهترى وفوق ذلك كان له قرنان طويلان جداً وكلما حرك رأسه لطرد الذباب يوخز قرناه خصر راكبه

وفي الليل كان يربط ثوره ويجلس مع الشعب حول نار القرية يصغي الى الافريقيين وهم يحكون اقاصيص ابطالهم ثم يخبرهم هو قصة بطله الحقيقي ألا وهي قصة يسوع في بيت لحم والجليل وعلى الصليب .

وحدث ذات يوم وهو سائر في ممر واقف الانحدار بين الجبال ولاهياً باجابة الاسئلة التي كان يسأله اياها رفاقه الافريقيون انه عثر فانكسر اصبعه في الصخر وبعد بضعة ايام بعدما شفي اصبعه استيقظ في منتصف الليل على زئير اسد مفزع فعند ما فتح عينيه تناول مسدسه واطلقه على الاسد فهرب من امامه انما ردة المسدس كسرت اصبعه ثانية فلما رأى رفاقه الدم منفجراً قالوا لقد آذيت نفسك وخلصتنا فمن الآن فصاعداً نكون لك خاصة

وبعد رجوع لفنجستون من هـذه السفرة ذهب مع ثلاثة صيادين من الانجليز ليعيش بين قبيلة القرود كما وعدهم فهؤلاء البخاتلة كانوا ساكنين بين الانهار والجبال على مسيرة اسبوعين من كورومان واسم البقعة مابوتسا الذي تفسيرها «عيد الزواج» وكانت واقعة في واد جميل ووراءها نصف دائرة من التلال الكبيرة وكثيراً ما كان يزعج زئير الاسود سكان مابوتسا ليلاً حيث كان صوتهم يقصف كالرعد بين التلال وكان لفنجستون قد علم البخاتلة حفر الترع في بساتينهم ولكنهم كانوا يكفون عن الحفر بسبب هجوم تلك الاسود وقد هجم احدها على المواشي وقتل بعض البقر فتجمع سكان قرى مابوتسا جماهير وهم في حالة الهياج والخوف معاً وتكلموا عن هذا الحادث الغريب وقال بعضهم لبعض — لقد عمل معنا عمل سحري لانه من ذا الذي رأى ان الاسد سلطان الليل يقتل بهائمنا في رابعة النهار ؟ وكانوا مذعورين حتى انهم بعد ما خرجوا ليقتلوا الاسد رجعوا يرجفون هلعاً كجبناء لم ينتصروا البتة لانهم لم يقتلوا ولا اسداً

وقد شعروا بخزي وارتجفوا بمجرد الفكر في محاولة قتل اسد مرة ثانية وبعد مضي بضعة ايام اذا بأسد قد زمجر بحنق وانقض

وسط الغنم وقتل منها تسعة رؤوس في وقت الظهر على التل المقابل لبيت لفنجستون

ان لفنجستون قد تسمى داود على اسم ذلك الراعي الذي قتل الاسد عند ما هجم على قطعانه ولا يزال اسمه هكذا الى الآن وعرف انه متى قتل هذا الاسد فالبقية تهجر ذلك المكان وكانت الاسود على تلة صغيرة مغطاة بالاشجار فأحاط شعب القرود ذلك التل اما لفنجستون واستاذ مدرسة وطني يدعى مبالوي ترقبا بندقيتيهما فنظرا اسداً نائماً على صخرة فاطلق مبالوي بندقيته عليه فأصاب العيار الصخرة فقام الاسد وعض المحل الذي اصابه العيار كما يعمل الكلب في العصا أو الحجر الذي يرمى به ثم انقض ومرّ فيما بين الجماعة المحيطين بالتلة ونجا سالماً ونجا اسدان آخران بهذه الصورة وبما ان البخاتلة كانوا معتقدين انهم مسحورون لذلك خافوا من ان يرموا حرابهم عليه وهكذا انصرف كل منهم الى بيته

ويخبرنا لفنجستون قائلاً — انني لما درت حول التل رأيت احد الاسود جالساً على قطعة صخرة كالسابقة لكن امامه عليقة صغيرة ولما صار بيني وبينه ثلاثين ياردا صوبت بندقيتي نحو جسده في وسط العليقة واطلقت عليه عيارين فصاح الشعب قائلين مراراً

وتكراراً — لقد اصيب . وعند ما رأيت ذنب الاسد منتصباً بغضب وراء العليقة التفت الى الشعب وقلت لهم تأنوا قليلا حتى اعمر بندقيتي ثانية وبينما انا ادك الرصاصة سمعت صوتاً فقمت وتطلعت حولي واذا بأسد منقض عليّ وكنت فوق رابية فلما هجم امسك بكتفي فسقطنا كلانا معاً واذ كان يزأر بصوت مرعب في اذني هزني كما يفعل كلب الصيد بالفار فذهلت كما يذهل الفار ايضاً عندما يهزه القط وكنت وقتئذٍ كمن في حلم فلم اشعر بخوف ولا بألم فانقلبت لكي اخلص نفسي من ثقل الاسد لان احد مخاليبه كان وراء رأسي فرأيت عينيه مصوبتين نحو مبالوي الذي كان يحاول ان يطلق بندقيته عليه على بعد عشر او خمس عشرة ياردا ولكنه اخطأ الغرض في العيارين فتركني الاسد على الفور وهجم على مبالوي وعض فخذه ولكن رجلاً آخر حاول ان يطعن الاسد بحربته وهو يعض مبالوي وذلك الرجل كنت سبقت ونجيت حياته بعد ما نطحته جاموسة من جواميس البرية فترك الاسد مبالوي وامسك بهذا الرجل من كتفه ولكن في تلك اللحظة كان قد سرى فيه مفعول العيارين اللذين سبقت واطلقتهما عليه فسقط ميتاً . ولكن الاسد كان قد قضم العظم نحو كتف لفنجستون الايسر

فكسره قطعاً وترك آثار احدى عشرة من اسنانه في ذراعه وقالت قبيلة القرد ان ذلك الاسد هو اكبر اسد رأوه في حياتهم وكانوا يظنون بان هذا الاسد مسحور بطبيب دجال عند قبيلة اخرى حتى يقدر ان يقتلهم اجمعين فاشعلوا عليه ناراً كبيرة واحرقوه فيها ليحرقوا السحر ويفسدوه على الساحرين

الفصل الرابع

ملكة العربة

قد اقبل عدد وافر من الصبيان والبنات لاول مرة في حياتهم الى المدرسة وكان جميعهم صغيري السن سمر البشرة وعراة الابدان وكانوا يرجفون خوفاً لان امهاتهم كن قد اخبرنهم ان الرجل الابيض سيعضهم ولقد اخطأ اولئك الامهات في ظنهن لان معلم المدرسة كان شفوقاً لطيفاً بمقدار ما كان قوياً شجاعاً . ان تلك المدرسة كانت في مابوتسا وذلك المعلم هو لفنجستون بعينه . وهكذا حاول اولئك الاخوة والاخوات السمر ان يختبئ الواحد وراء الآخر وعيونهم الواسعة تبرق خوفاً وهلعاً حينما شاهدوا معلمهم الابيض بذراعه المجروحة ولم يريدوا لاول يوم ان يأتوا الى المدرسة لكن رئيس البخاتلة ومبالوي اجبراهم على الحضور وهكذا في اليوم التالي قد رغبوا في الحضور من تلقاء ذواتهم لانهم احبوا المدرسة

ولم يكن في تلك المدرسة تخوت ولا محابر ولا صور ولا عصا وكل الارض كانت مثل ساحة اللعب ولم يستطع اشجع غلام ان

يجرؤ على التوغل في الغابات لانه وان كنت تلتذ بقراءتك عن المخاطرات بين الاسود أو برؤيتك الاسود في حديقة الحيوانات الا انه أمر يبعث الى الرهبة اذا علمت بوجود الاسد كامناً في دغلة بينك وبينه عشر ياردات جاثماً متحفزاً للوثوب دون حاجز بينكما

ثم انه لم تكن سيدة في المدرسة لتعلم البنات والآن اخبركم عن كيفية مجيء السيدة —

بعد ما شفي ذراع لفنجستون رجع الى كورومان وسافر مائة وخمسين ميلاً لمقابلة المستر روبرت موفات الذي كان قد رجع من انكلترا الى مركز شغله كمرسل في كورومان وبينما كان لفنجستون راكباً في العربة رأى ماري ابنة موفات الكبرى بجانب والدتها وسرعان ما احب داود وماري احدهما الآخر وقطعا عهد الصداقة تحت شجرة اللوز الكبيرة في كورومان تلك الشجرة التي لا تزال تخرج ثمارها وبعد وقت وجيز اقترنا بالزواج ورجعا معاً الى مابوتسا ليسكنا فيها (ولا شك انكم تذكرون ان اسمها — عيد الزواج) وهناك كانت ماري تعلم البنات الافريقيات في المدرسة

وسكن لفنجستون وزوجه في بيت مبني من الحجر والآجر الذي بناه لفنجستون ومساعدوه بايديهم وقد بنى لفنجستون معظمه

لان من عادة البخاتلة ان يبنوا بيوتهم مستديرة ولذلك يصعب عليهم جداً ان يضعوا الحجارة والآجر على خط مستقيم بل كان عليه ان يعمل الآجر بيديه وهو ومساعدوه قد عملوا الابواب والشبابيك من خشب اشجار الغابة . ويقول لفنجستون ان كل قالب وكل قطعة خشب قد عملت بهيئة مربعة بيدي اليمنى شخصياً . وكانا كلاهما يمخضان لبنهما ويعملان منه زبدة في جرة ويصبان الشمع ويصنعان الصابون باستعمال رماد بعض النباتات بدل الصودا لان اقرب دكان كانت تبعد عنهم مائة ميل لكنهما قد احبا الصعوبات . ويقول لفنجستون انهما وهما يعملان هذه الاشياء بايديهما كانا يشعران انهما اشبه بروبنصن كروزي ومن اقواله المأثورة من هذا القبيل قوله — ان زوجتي هي خادمة في كل شيء اما انا فماهر في كل الاشغال أو كما يقول المثل الدارج — صاحب سبع صنايع

وبما ان الشمس كانت محرقة جداً في وسط النهار لذلك كانا يستيقظان باكراً ويتناولان فطورهما الساعة السادسة صباحاً ويذهبان الى المدرسة حوالي الثامنة وهناك يجدان رجالاً ونساء واطفالاً منتظرين التعلم لانه حتى الكبار بين البخاتلة لم يعرفوا القراءة ولا الكتابة وتنتهي المدرسة في الساعة الحادية عشرة وحينئذٍ يرجع

لفنجستون اما ليحرث البستان أو يشتغل في النجارة واحياناً كان يشتغل حداداً بالمطرقة والسندان ويصنع آلة من الآلات أو يصلح غلاية أو مقلاة لاجل زوجته المشتغلة في البيت

وبعد الغداء برتاحان ساعة من الزمن في احر جزء من النهار ثم تذهب مريم الى المدرسة وهناك تجد مائة تلميذ منتظرين ان يحتاطوا بها ويتعلموا منها لانهم صاروا يحبونها جداً ويحبون المدرسة ايضاً وكانت تعلم البنات اليافعات الخياطة وفي العصر والمساء كان لفنجستون يطبب المرضى وبعد حلب البقر في المساء كان يجمع الرجال والنساء ويقيم خدمة دينية تحت ضوء النجوم وهناك يعبدون الله ويصلون له ويكلمهم عن محبته

ثم حضر مرسل آخر الى مابوتسا وبعد قليل فكر لفنجستون وقرينته ان ينتقلا الى مكان ابعد حيث لا يوجد من يعلم الناس عن يسوع المسيح اما البخاتلة فحزنوا لذلك كثيراً حتى انه عندما ابتدأت العربة في المسير احتاطوا بها جميعهم وطلبوا من لفنجستون ان لا يتركهم وكانوا يقولون امكث معنا ونحن نبني بيتاً آخر لاجلك

اما لفنجستون مكتشف الطريق فقد كان دائماً محباً للتقدم في السير كأنه طليعة جيش فهكذا قد سار مع زوجته (الملقبة بملكة

العربة) في عربة تجرها الثيران ويلهبها السائق بكرباجه تاركاً البخاتلة (شعب القرد) وابتعد عنهم مسافة اربعين ميلاً الى الشمال ولما وصلا الى تشونوين (وهي قرية من بلاد شعب التمساح) ترحب بهما الرئيس سيشيلي بكل سرور

اما لفنجستون فبنى بيتاً آخر في تشونوين وشرع هو وقرينته ان يعلما الاولاد في قرية سيشيلي وعاشا كما كانا عائشين في مابوتسا اما سيشيلي فلم يقع نظره على كتاب قبل الآن ولم يعرف القراءة مطلقاً ولكنه كان ذكياً حتى استطاع ان يحفظ الحروف الابجدية في يوم واحد ورغب في ان يصير كل افراد قبيلته مسيحيين فأشار على لفنجستون قائلاً ان افضل طريقة يعملها سيشيلي كرئيس القبيلة هي ان يأمر بضرب الجميع بكرابيج مصنوعة من جلد الخرتيت (الكركدن) الى ان يقولوا انهم يعبدون يسوع . وقد تعب لفنجستون حتى افهمه ان الرب يسوع لا يريد ان يأتي اليه الناس بسبب الخوف والضرب بل بسبب حبهم له

وفي ذات يوم كنت ترى اولئك القوم في تشونوين بوجوه باسمة وعيون مفتوحة فرحاً واندهاشاً ويتحدثون عن أمر لم يروه قبلاً طول حياتهم الماضية وهو ان طفلاً ذكراً صغيراً ابيض قد

جاد به الرب على السيدة ماري وزوجها داود لفنجستون وسمي روبرت كاسم جده ابي امه روبرت موفات وبما ان الافريقيين ينادون الامهات باسماء اولادهن فكانت تدعى السيدة لفنجستون بأم روبرت

فكل الاطفال الذين رأوهم قبلاً كانوا سمراً بلون الشكولاتا وظهر لهم انه أمر غريب ان الطفل يكون ابيض واذا قابل الولد الافريقي ولداً ابيض ولم يكن قد رأى البيض من قبل يسر برؤية شعره المستطيل أو المتموج لانه يختلف كل الاختلاف عن شعره القصير الأكرت الاسود

وفي ذات يوم لم يشعر هذا الطفل الابيض وكل الاطفال ايضاً الا وهم خارجون من بيوتهم يحملهم امهاتهم الى مساكن جديدة وحدث ذلك لانه مر يوم بعد آخر واسبوع بعد آخر وشهر بعد آخر والشمس مضيئة لامعة ولم تنزل قطرة مطر وكان الحر شديداً محرقاً لدرجة انك اذا وضعت خنفسة على الرمل في الشمس لا بد ان تحترق وتموت بعد بضعة دقائق ولا يقدر ان يعيش الناس بدون ماء ولذا قد فكر لفنجستون في ان يرتحل ايضاً الى ارض صخرية بجانب نهر يدعى كولوبنغ . ففي اليوم التالي بعد ما قال لهم

انه راحل من عندهم وجد كل الناس مندفعين ومنشغلين مثل النمل لانهم عزموا على ان لا يعيشوا بدون لفنجستون حاميهم الابيض ومعلمهم وصديقهم فتركوا قريتهم القديمة ورافقوه الى كولوبنغ وهناك بنوا قرية جديدة

والبلاد التي حول كولوبنغ كانت مملوءة بالحيوانات البرية حتى كانت تأتي الى القرية نفسها ففي احد الايام بينما كان لفنجستون واقفاً امام بيته اصطاد كركدناً وجاموسة برية . وهو في كولوبنغ قد عاونهم في جعل مياه النهر ان تجري في اقنية صغيرة الى بساتينهم وهو وام روبرت علما الاولاد في المدرسة التي ابتناها لهم الرئيس سيشيلي

وفي ذات عشية بعد انتهاء شغل النهار واستعد القوم للراحة اذا برجل اسود قد قدم الى القرية وهو يلهث تعباً والذعر باد على وجهه وركض مسرعاً الى لفنجستون واخبره وهو مقطوع النفس بان جماعة من الصيادين على بعد عشرة اميال في الغابة قد هوجموا بكركدن اسود واندفع بغضب على العربة فادخل قرنه في سائقها ومعلوم ان الكركدن لو نطح فيلاً بقرنه لقتله فقد ركض ذلك الرسول طول الطريق ليستحضر الدكتور لنفجستون فنهض في

الحال ليسرج فرسه ويأخذ معه الدواء اللازم ويسرع لتخليص حياة الرجل المجروح

فقال له اصدقاؤه — يجب ان لا تذهب لان الغابة محفوفة بالاخطار وانت تعلم انه يوجد فيها اسد وكركدن ووحوش اخرى تتحفز للفريسة في الليل اما لفنجستون فشعر بانه يجب ان يذهب ويساعد ذلك السائق الجريح متبعاً مثال سيده يسوع الذي كان يجول عاملاً خيراً ويشفي المصابين فلذا قد ركب مسافة عشرة اميال كلها مخاطر وفي كل خطوة كان مهدداً بهجوم احد الوحوش عليه ولكن لسوء الحظ فانه عند وصوله الى مكان ذلك السائق كان قد مات ورجع قافلاً في تلك الغابة المظلمة

قد مرت السنون ورزق الله عائلة لفنجستون بطفلين ابيضين جديدين الواحد بعد الآخر فكان الثلاثة يلازمون امهم اثناء غياب والدهم في سفراته الطويلة

وكان لفنجستون قد سمع قبلاً عن بحيرة عظيمة في وسط صحراء كالاهاري على بعد مئات من الاميال شمالاً وقد اخبره الرئيس سيشيلي بانه لا يستطيع رجل ابيض ان يخترق الصحراء اما لفنجستون فصمم على اختراقها قائلاً انه يجب على المرسلين ان

يسافروا ويتقدموا اكثر واكثر الى ان يفتتحوا مجاهل افريقيا باكملها . فكثيرون كانوا يقولون قبلاً انه يوجد برية هائلة ممتدة من الصحراء شمالاً الى كالاهاري جنوباً ولكنه كان واثقاً ان الامر ليس كذلك

وفي ذلك الوقت كان يسكن بجوار تلك البحيرة المجهولة رئيس شاب يدعى ليشولاتيبي — هذا سمع عن لفنجستون فأرسل له رسلاً اخترقوا البرية ملتمساً منه ان يأتي الى البحيرة وقال الرسل ان رئيسهم ليشولاتيبي هو رئيس مقدام وعظيم حتى انه عمل حظائر (زرائب) مواشيه من سن الفيل فقام لفنجستون هو واثنان من السياح احدهما يدعى موراي والآخر اوصول اللذان قد رغبا في الذهاب معه واخذوا عرباتهم وارتحلوا شمالاً فيصعدون فوق التلال المدغلة (المملوءة اشجاراً) وينزلون في مجرى نهر جاف من الانهار القديمة وكانت البلد هناك سهل مكسوٌ بالاشجار الشائكة وبعيداً عنها في بقعة جميلة ذات آبار عميقة تدعى بوعطلاناما رأوا غزلاناً جميلة وقروداً تهذرم وفراخاً (سودانية) تنقنق وكلما كانوا يتقدمون تزداد الارض جفافاً وتصير رملية اكثر الى ان وصلوا الى البرية حيث غاصت عجلات العربة في الرمل الناعم وصار صعباً

على الثيران العطشى ان تجر العربة فيها وفي تلك البلاد القفرة مع انه لا يوجد فيها نهر سوى آبار قليلة فقد رأى لفنجستون قطعان هائلة من الغزلان وحومات كبيرة من النعام بينما يزأر الاسد من وسط الهيش الغزير ويعوي الضبع وابن آوى من بين الاعشاب الشائكة .

فالنباتات التي في البرية تعيش بواسطة مد جذورها في الرمل بكثرة حتى تصل الى الماء الذي تحت الارض وتعيش الغزلان على الحشيش وعلى النباتات الجذرية الكبيرة مثل اللفت الذي يكبر بحجم رأس الصبي وينمو تحت سطح الارض بنحو قدمين ومملوء بالعصارة الباردة اللذيذة الطعم

ففي احد الأمساء بينما كان لفنجستون ورفاقه ملتهبين عطشاً وصلوا الى قرية يسكنها اناس قصيرو القامة من جنس البوشمن (ساكني الغابات) في البرية وهم نحاسيو اللون يعيشون على القنص والصيد واغلب لغتهم تكتكة وهم الوحيدون بين الافريقيين الذين يقدرون ان يرسموا صوراً وصورهم التي يرسمونها اشبه بما يرسمه تلاميذ روضة الاطفال عندنا (Kindergarten) وكان من عادة المسافرين (السياح) عند وصولهم الى قرية من قرى البوشمن هؤلاء وهم

عطاش فلما لا يجدون آباراً ليشربوا منها يأمرون اهالي القرية ان يعطوهم ماء وعند ما يجيبهم البوشمان بالقول ليس عندنا ماء يشتد غضب السياح ويتهددونهم بالقتل فقد نتج من ذلك ان البوشمن كانوا يطلقون عليهم سهامهم المسمومة ويقتلونهم فلو كان لفنجستون تصرف بهذه الصورة لما كان قد تم براعته العجيبة في سفراته ولما كان قد عاش في وسط مخاطراته الكثيرة والغريبة ولكنه عند وصوله الى قرية البوشمن جلس صامتاً هو ورفاقه واظهر لهم صداقته واخلاص نيته وجعلهم يعرفون انه عطشان فحالاً احضرت له النساء قشور بيض النعام الكبيرة ملانة ماء. وانه لمن الامور المدهشة ان البوشمان استطاعوا ان يستحضروا الماء في قشور بيض النعام حيث لم يكن مطر وليس عندهم آبار أو نهر وكيف كان يمكنهم ان يخبئوا تلك القشور بحيث لا يقدر احد ان يجدها ولو فتشوا كل كوخ في القرية تفتيشاً دقيقاً

اما المسألة فهي هكذا — انه يوجد تحت قاع النهر الجاف بمسافة بعيدة مجرى بطيء من الماء يمشي بين الرمال فيحفر البوشمن ثقباً عميقاً ويضعون في قاع ذلك الثقب حزمة حشيش ويركزون في الثقب قصبة مجوفة ومن ثم يملأونها رملاً ثم يمتصون الماء من

القصبة (والحشيش الذي في القاع يصفيها) ويصبونه في قشور بيض النعام الفارغة وكلما تمتلئ قشرة يسدونها ببعض الاعشاب وبعد ما يملأون مقداراً وافراً ينقلونه الى القرية ثم يحفرون بؤرة ويدفنون تلك القشور في الارض الرطبة ويحدث احياناً انه عند ما يرون غريباً آتياً الى القرية يوقدون النار فوق ذات البقعة المدفون فيها القشور الملآنة ماء

وهكذا كان يسافر لفنجستون واصدقاؤه يوماً بعد آخر في هجير الشمس تحت جو خالٍ من الغيوم بدون ما يجدون ماء ولم يصلوا الى بحيرة كما قيل لهم ولذلك شكوا في صدق الاخبار التي قيلت لهم وبغتة رأوا في غمام ازرق جميل بعض الامواج المترقرقة ولاحظوا ظل اشجار فرمى اوصول الصياد قبعته في الهواء وصاح فرحاً واندفعت الثيران لكي تشرب ولكن نساء البوشمن اللواتي كن يرشدنهم في الطريق وقتئذ ضحكن منهم فاذ ما رأوه لم يكن سوى سراب كاذب ناشئ عن انعكاس اشعة الشمس المترقرقة على الرمال المغطاة بالملح في البرية القاحلة اما البحيرة فكانت لا تزال تبعد نحو ثلثمائة ميل

ومع ذلك لم تمض مسافة طويلة حتى وصلوا الى نهر بطيء

الجريان يدعى الزّوغا وشاطئاه جميلان كثيرا الاشجار فجرت التيران العربات على طول الشاطئ حتى وصلوا الى قبيلة غريبة لم يحارب اهلها اعداءهم قط وكان يسكن هؤلاء القوم اغلب اوقاتهم في زوارق في النهر وكانوا يحفرون تلك الزوارق كلاً من جذع شجرة واحدة بمعول حديد فان كان الجذع منحنياً يكون الزورق منحنياً ايضاً وكانوا يوقدون نارهم في الزورق وينامون فيه ويقولون ان الاسود والحيات والضبع والاعداء توجد على البر ولكن متى كنت في زورقك وحوله سد من القصب فتكون في أمان

فاحب لفنجستون تلك القبيلة حباً جماً وفضّل بان يسافر اغلب الطريق في زورق من تلك الزوارق الخفيفة السير بدلاً من السير في عربة تجرها التيران التي ترج راكبيها رجاً عنيفاً واستمر الافريقيون يقذّفون ومياه نهر الزوغا تتماوج على جوانب الزوارق الملساء الى ان وصلوا الى نهر آخر جارٍ من الشمال ويصب في الزوغا ويدعى هذا النهر تامونا كلي

ولما توقف المقذفون سألهم لفنجستون من اين مصدر هذا النهر ؟ فأجابه سكان ذلك المكان انه يفيض من بلاد ملاى من الانهار وانهارها كثيرة حتى لا يستطيع احد ان يذكر عددها

وملأى ايضاً بالاشجار الهائلة فأثار هـذا الجواب في لفنجستون حب الاستطلاع لانه كما تعلمون ان كل شخص في انكلترا واميركا كان يعتقد ان اغلب افريقيا هو برية رملية قفرة لكن اذا كان قول اولئك القوم حقيقياً يستفاد اذاً ان افريقيا ليست برية قفرة بل هي بلاد ملأى بالغابات والجبال العجيبة ويسكنها ملايين من السكان وما دامت فيها انهار كثيرة جداً فمن السهل على المرسلين ان يزوروهم في زوارق خفيفة السير فاذا قدر لفنجستون ان يكتشف هـذا الامر فيكون قد افتتح اعظم ارض مجهولة في كل العالم فلا عجب اذاً من انه تحمس وتهيج

وحدث انه بعد ذلك بأيام قليلة في اول اغسطس سنة ١٨٤٩ قد رأوا مياه بحيرة نجامي اللامعة ممتدة الى ما هو ابعد من مدى بصرهم ولم يرها رجل ابيض قط قبلاً واول اكتشاف مهم اكتشفه لفنجستون هو بحيرة نجامي هذه ولكن انشغل عقله بما هو اكثر اهمية من مياه تلك البحيرة المتسعة الا وهو قول الوطنيين الذي ذكرناه قبلاً — ان البلاد ملأى بالأنهار وانهارها كثيرة حتى لا يستطيع احد ان يذكر عددها وملأى ايضاً بالاشجار الهائلة —

فرغب لفنجستون ان يدخل فوراً في البلد شمالي نهر الزوغا

انما الرئيس ليشولاتيبي الذي طلب منه ان يأتي الى ارض البحيرة لم يرد ان يسمح له ان يسافر بعيداً ولم يرد ان يعاونه في شيء فمن ثم حاول بكل قوته ان يعمل لنفسه رومساً (رمثاً) في النهر ليعبره عليه هو وعربته وثيرانه ولكن الخشب كان معطناً ولا يمكن ان يعمل منه رومس وقد ذعر لفنجستون لما علم في ما بعد بان النهر الذي اشتغل فيه عدة ساعات وهو غائص فيه لحصره (للحزام) ملآن بالتماسيح ومن ثم رجع على حافة برية كالاهاري الى بيته في كولوبنغ ولا بد ان يكون حصل بعض الهياج بين اولاده روبرت واجنس وتوماس عند ما قال لهم والدهم ان في ذهابي المرة الآتية تمضون معي جميعاً . ولا نعلم ماذا كان فكر والدتهم عن عبور تلك البرية العطشى هي (المكنى عنها بملكة العربة) واولادها الثلاثة الصغار

الفصل الخامس

كيف رأى الاولاد البحيرة

كثيراً ما يلعب الاوربيون وفي العابهم يشخصون الكشافة الهنود والرواد الافريقيين وورد في كتبهم القصصية بعض من هذه التشخيصات كأن يختبئ واحد في الظلام بجانب الحائط ويمثل نفسه انه في غابة من الغابات مع انه في الحقيقة وراء مقعد من المقاعد ولا يبعد عن الظن ان اولاد لفنجستون الصغار روبرت واجنس وتوماس عند ما رأوا اباهم خرج مكتشفاً مع المستر اوصول تاركاً اياهم مع امهم في البيت في كولوبنغ — يلعبون لعبة يشخصون فيها انفسهم بمكتشفين ويشخصون فيها اباهم والافريقيين واسوداً وأفيالاً فكان امراً غريباً ومدهشاً لهم عند ما رجع ابوهم من سفرة وقال لهم — انتم ايضاً ستكونون مكتشفين فسنذهب كلنا معاً في العربة ونخترق البرية حتى نصل الى البحيرة العظمى — وقد تم ذلك فعلاً فانه بعد سنة من ذلك الوقت اخذ اولاده الثلاثة وام روبرت في العربة وسافروا سفرة من اعجب وادهش السفرات التي سافرها الاطفال من اول الدنيا فكانوا يتطلعون من العربة ويرون الغزلان

تقفز في وسط الاعشاب والحشائش والبوشمن يصطادونها باقواسهم وسهامهم وكانت عيونهم تنبهر من كثرة النظر الى نور الشمس على الرمل الاصفر ولا شك انهم كانوا يتألمون لتعب الثيران وجهدها تحت انيارها في جر العربة الكبيرة قاطعة البرية ومر يوم بعد آخر على هذه الحال ولما قربوا من الجانب الآخر كانوا يرون اليحامير (حمر الوحش) والجواميس البرية تجري صاعدة من الآبار عند ما تسمع صوت العربة مقتربة اليها. واخيراً وصلوا الى نهر الزوغا الكبير وهناك رأوا الرجال السمر يقذفون في زوارقهم المصنوعة من جذوع الاشجار وروبرت اكبر اخوته كان يشتهي ان يخرج من العربة ويبحر في النهر في احدى تلك الزوارق

وبينما كانت تنزل الافيال الى النهر بنقنقتها وطشيشها لكي تشرب كان يراها الاولاد وهي تشفط الماء بخراطيمها بشخير عال ثم تفجرها مثل النوفرة على اجسامها الهائلة وتصرخ من الفرح عند ما تشعر بالماء البارد يجري على اجنابها

وكان الباكوبا (سكان تلك الجهات) يحفرون حفراً ويغطونها لتظهر كأنها ارض صلبة والغرض منها صيد الحيوانات وهي نازلة للشرب فكان يحدث احياناً ان يسقط ثور من الثيران التي تجر

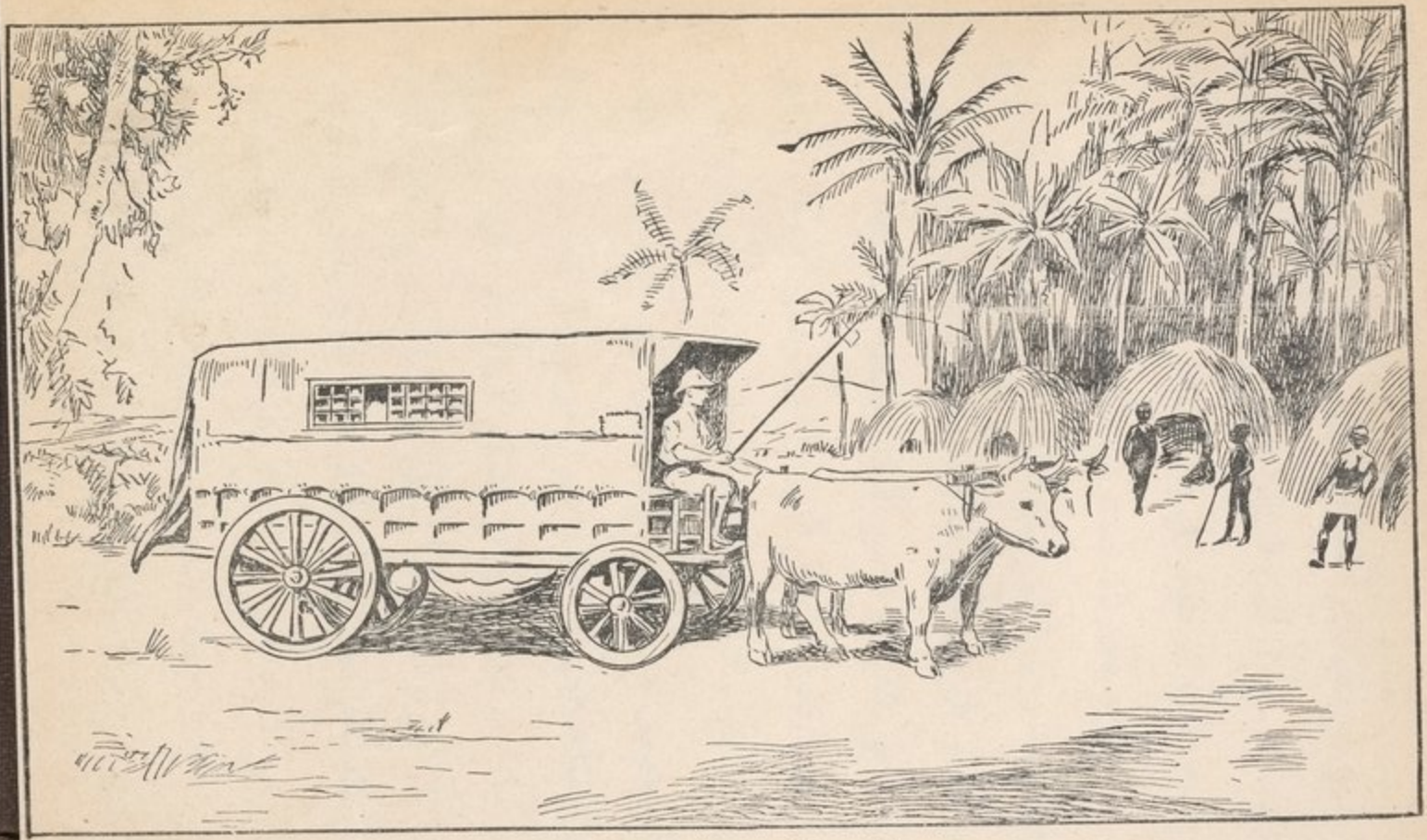

عربة تجرها الثيران في جنوب افريقيا

العربة في احدى تلك الحفر فتحدث رجة مفزعة تكدر ام روبرت والاولاد ومن غرائب الفيلة انه متى سقط فيل صغير في حفرة تأتي امه وتلف خرطومها في وسطه وتخرجه سالماً

وكان يصدف للفنجستون وعائلته ان ينتظروا مدة طويلة في مكان واحد ريثما يقطع رجاله الاشجار من طريق العربة ومن ثم يدورون في طريق لا يعرفها لفنجستون لانه يوجد في بعض البقع على شواطئ النهر نوع من الذباب المسمى (تسنسه) لسعة واحدة من احداها كافية ان تقتل الثور واخيراً وصل الاولاد الى البحيرة التي اكتشفها والدهم فصاحوا صياح الفرح وحالاً صاروا يعومون فيها ويلعبون مثل صغار البط فكان يقف لفنجستون والسيدة قرينته ضاحكين على اولادهما وهم يعومون في بحيرتهم الكبيرة

ولما اراد لفنجستون ان يتقدم الى الامام اكثر ليرى رئيس قبيلة الماكولولو المسمى سابتواني اصيب اثنان من اولاده وآخرون من رجاله بالحمى فاسرع راجعاً الى هواء البرية الجاف الصحي وبعد قليل رجع الى بيته في كولوبنغ وفي ذلك الاثناء ولدت لهما ابنة صغيرة وكانت جميلة وعينيها زرقاوين لكن بما ان في وقت ولادتها كان كثير من اولاد كولوبنغ مرضى بمرض معدٍ فقد اخذت تلك

الطفلة المرض ايضاً وانتهت حياتها ولها من العمر ستة اسابيع وذلك قبل عيد الميلاد سنة ١٨٥٠ بقليل

وفي شهر ابريل من السنة التالية سافر الاولاد ايضاً سفرة غريبة في البرية الى بلاد الغابات والانهار وكان معهم في هذه المرة صديقهم الصياد المستر اوصول وتقدمهم برجاله ليحفر لهم آباراً حتى عند وصول ام روبرت مع اولادها تجد ماء بكثرة لاجلهم لكنهم قد وصلوا الى ناحية من البرية التي كانت اكثر جفافاً مما رأوها قبلاً بحيث لم يوجد فيها ماء ولو تحت الرمل فكانت جافة وخالية من كل ما فيه نسمة حياة حتى انهم في مدة ثلاثة ايام لم يروا فيها حشرة ولم يسمعوا زقزقة عصفور لان خبيرهم (قائدهم) الامين وهو رجل يدعى شوبو من قبيلة البوشمن قد ضل طريقه فصرفوا اربعة ايام هائلة بدون ماء كلية وكان احد الخدامين قد اراق الماء الذي كان يحفظ عادة في العربات فناح الاولاد وبكوا من شدة العطش وتألم لفنجستون كثيراً لانه جاء بهم الى هذه الحالة المريعة بل كان يتمنى لو اوقعت ملكة العربة عليه بعض اللوم وأنبته فكان يتسرى عنه على نوع ما على انها لم تلمه ولا بكلمة واحدة لكن ما ألمه اكثر من كل شيء هو انه كان يرى الدموع في عينيها

ففي اليوم الخامس اذا باحد الرجال الذي كان قد سبق وذهب امامهم راجعاً متهللاً بأعلى صوته وحاملاً معه بعضاً من الماء استقاه من نبع ماء قد وجده فكرع الاولاد من الماء البارد بكل سرور بينما كان والدهم ووالدتهم يتطلع كل واحد في وجه الآخر ولم يكونوا دارين بالخطر الفادح الذي كان يتوقع حصوله . وقد ساروا طول مسافة نهر الزوغا وصعدوا الى نهر تامانكلي الذي يصب فيه من جهة الشمال ووصلوا الى موطن سابتيوان رأس الماكولولو وهو رئيس حربي وعرف كيف يعلم شعبه ان يحبوه مثلما يجعل اعداءه يخافونه

ان سابتيوان هذا كان يقدر ان يعدو اسرع من اي رجل في قبيلته ومن عادته انه قبل ان يحارب حرباً فلكي يجعل الجبناء من رجاله شجعاناً يرفع بلطته ويمس حدها بأبهامه ويصيح قائلاً — أها ! انها لحادة جداً وكل من اعطى قفاه للعدو سيرى حدها في عنقه

وحالا اشتدت الصداقة بين سابتيوان ولفنجستون ووعده بقطعة ارض يبني فيها بيته ولكن لسوء الحظ لم تمض بضعة اسابيع الا ووقع سابتيوان مريضاً وصار ارداً فأرداً الى ان قطع الرجاء من

حياته وكلماته الاخيرة كانت قوله — خذوا اصغر اولاد لفنجستون الى مونكو (احدى زوجاته) لتعطيه لبناً

فحكمت ابنته ماموتشيزان بدله بعد موته وهذه كانت مصادقة للفنجستون . وبعد ذلك ترك لفنجستون زوجته واولاده في القرية وذهب هو واصول الى جهة الشمال الشرقي داخل بلاد لنيانتي حتى وجدوا نهراً جميلاً جديداً في ثالث شهر اوغسطس سنة ١٨٥١ وكان هـذا النهر متسعاً جداً حتى انه اثناء عبوره كانت الامواج تجعل الزورق ان يتدحرج بكيفية مسرة فتحمسا وابتهجا حتى ان كل ما قدرا ان يعملاه هو ان يهنئ الواحد الآخر بالقول ما ابدع وما ابهى وما اجمل هذا النهر ولم يعرفوا الا بعد مدة ان هذا النهر هو النهر العظيم زمبيزي الذي يصب في شلالات فكتوريا ثم يجري الى الاوقيانوس الهندي

وقد شعر لفنجستون بانه ينبغي عليه ان يكتشف طريقاً اما الى الشاطئ الشرقي أو الغربي من افريقيا منه يستطيع المرسلون أو التجار ان يصلوا الى افريقيا الوسطى ولكنه تعلم بعد ما رأى اولاده قد اصيبوا مراراً بالحمى انه لا ينبغي ان يسافر بهم في ذلك الاقليم . فماذا عليه ان يعمل ؟ عوّل على ان يتوجه الاولاد مع والدتهم الى

انكلترا مدة سنتين وفي هذا الاثناء يكون قد وجد الطريق الى الساحل ثم يقدر ان يستقر في بقعة صحية فيرجعون جميعهم اليها ثانية وعليه قد رجع بهم الى بيتهم القديم في كولو بنغ ومن يتصور دهشتهم عند ما وجدوا ان كل الشعب الذي كانوا يعرفونه ورئيسهم شيشيلي قد رحلوا جميعاً لان البوير قد طردوهم من البلاد واطلقوا عليهم بنادقهم وذلك لكي يعطلوا مقاصد لفنجستون . ولا يليق ان نشدد النكير على هؤلاء البوير فانه يوجد كثيرون من الانجلوسكسونيين انفسهم قد عاملوا الافريقيين بمنتهى القساوة واليوم يوجد من احفاد البوير الذين قد عارضوا لفنجستون يشتغلون كمرسلين في افريقيا الجنوبية . لكن ما عمله البوير مع اصدقاء لفنجستون اظهر وجوب ايجاد طريق في قلب افريقيا الى الشمال الاقصى حيث لا يقدرون ان يتلفوا عمله ولذلك كان يقول لفنجستون — انني سأمضي الى اي مكان على شرط ان يكون الى الامام

اما الدكتور لفنجستون وام روبرت والاولاد فقد اداروا وجوههم لجهة بلاد الرأس ومضوا ليروا جدهم روبرت موفات في

كورومان ثم سافروا جنوباً الى ان وصلوا رأس الرجا الصالح التي هي طرف افريقيا الجنوبي

ومن هناك ابحرت الام واولادها الاربعة — روبرت واجنس وتوماس والطفل المولود حديثاً ومعهم وليم اوصول في سفينة اقلعت بهم الى انكلترا . ونقدر ان نتصور شعور ابيهم من نحوهم من المكتوب الذي ارسله الى ابنته اجنس التي كانت وقتئذ بين الرابعة والخامسة من عمرها وهذه صورة المكتوب —

تحريراً بمدينة الرأس في ١٨ مايو سنة ١٨٥٢

عزيزتي اجنس

هذا المكتوب هو لكِ خاصة فتقرأه لكِ امك وانتِ تسمعينه كما لو كنت انا اكلمكِ لان الكلمات التي اكتبها هي التي تقراها لكِ امكِ انا لا ازال بمدينة الرأس انت تعرفين انك تركتيني هناك عند ما نزلتم جميعكم في المركب الكبيرة وسافرتم . واني سأبارح مدينة الرأس حالاً وذهب ملاتسي لاجل الثيران اما انا فسأرجع الى بلاد سابتيوان وأرى سيبون وماريا اللتين اعطياك عقود الخرز واطعماك لبناً بعسل

انا لا اراك ثانية الا بعد مدة طويلة ولذلك انا حزين جداً

فان ناني (اسمها المدلع) ليست معي الآن وقد اعدتك ليسوع صديقك ولابيك الذي في السماء. هو عال عنك لكنه دائماً قريب منك وعند ما تطلبين منه شيئاً فهذا هو الصلاة له واذا فعلت أو قلت امراً رديئاً فاطلبي منه ان يغفر لك وان يباركك ويجعلك من اولاده

اطلب منك ان تحبي يسوع كثيراً لانه هو يحبك وقد اتى ومات لاجلكِ ما اطيب يسوع انا احبه واحبه ما دمت حياً فيجب ان تحبيه ايضاً وتحبي اخوتك وماما ولا تغيظيهم البتة ولا تكوني رديئة (شقية) لان يسوع لا يحب الشقاوة مع السلامة يا عزيزتي ناني

داود لفنجستون

الفصل السادس

مكتشف الطريق

وكما كتب لفنجستون الى اجنس ابنته كذلك قد كتب لام روبرت وقال :—

«عزيزة قلبي ماري

لقد اوحشتموني كثيراً انتِ والاولاد ومنذ غيابك لم ارَ وجهاً يعادل وجه الشمس الذي كثيراً ما حيّاني بنظراته ... خذي الاولاد بين يديك وقبليهم نيابة عني . قولي لهم انني قد ابتعدت عنهم محبة في يسوع ويجب عليهم هم ايضاً ان يحبوه . وان يتجنبوا كل خطية لان الخطية تغيظ حبيبهم يسوع ويسرني ان اسمع عنكم انكم جميعاً بغاية السرور في انكلترا » ؟ قرينك

ان لفنجستون لما شعر بالوحدة والانفراد رجع الى مدينة الراس الى بيت احد اصدقائه وكان في ذلك البيت غلام في الثانية عشرة من عمره فطلبه ليكون مرافقاً له في سفراته ما دام قد ارسل اولاده كلهم الى انكلترا وهكذا قال لفنجستون للسيد طمسن

الكوخ في اواسط افريقيا

تكرم بان تعطيني ابنك يسافر معي في العربة في البرية الى ان نصل الى ارض بتشوانا . فتصور كيف ان عيني ذلك الغلام قد ابرقتا عند ما تصور تلك السفرة المبهجة لكن اباه رفض ولم يرد ان ابنه يذهب لانه خاف على سلامته . وهذا الغلام قد كبر الآن وصار سكرتيراً لجمعية لندن المرسلية مدة تنوف عن ثلاثين سنة وجميع الذين يعرفونه يحبونه واسمه الآن الدكتور رالف واردلو طمسن

فسافر لفنجستون بدون رالف في عربته التي تجرها الثيران وبوصوله الى كورومان سمع من موفات عن الحادث الفظيع الذي حدث في بيته الذي في كولوبنغ في اثناء غيابه — ذلك ان البوير قد جاءوا وقتلوا كثيرين من قوم سيشيلي وطردوا الرئيس واخربوا بيت لفنجستون ونهبوا كل الاثاث الذي فيه ومزقوا كل اوراقه التي كتب فيها رحلاته الاولى ومخاطراته

وقد نجت زوجة سيشيلي هي وطفلها الصغير وهربت الى كورومان لتخبر زوجة المستر موفات فسألتها هذه قائلة وكيف تمكنت من الهروب بدون ما يأسرونك؟ فاجابتها ما سيبيلي (زوجة سيشيلي) انه قد كان بيني وبين السبي او الموت قيد شعرة — فقد اختبأت في شق صخرة ومعي هذا الطفل الصغير واقترب البوير اكثر فاكثر

وهم يطلقون بنادقهم حتى صاروا على الصخرة فوق رأسي وكنت ارى فوهات بنادقهم من فوق الشق عندما يطلقونها ومن العجيب ان الطفل اخذ في ان يبكي بصوتٍ عالٍ فايقنت عندئذ انهم لا بد ان يسمعوه ويأتوا ويأسرونا لكنني نزعت هذه الاساور من يدي بسرعة واعطيتها للطفل ليتلهى بها فذلك اسكت الولد ومضى البوير ولم يعثروا بنا

اما لفنجستون فقد حزن كثيراً واغتاظ لما بلغه ان اصدقاءه شعب التمساح في كولوبنغ قد عوملوا بالقساوة ونهبت مواشيهم ولان العقاقير التي كان يعالج بها المرضى قد اتلفت جميعها ولكنه تمازح بشجاعة عن بيته الذي خرب واثاثه الذي نهب وقال — ان صنيعهم هذا قد جعلني حراً لان اسافر حيثما اريد — وكتب لزوجته قائلاً —

«انا سنسافر بسهولة اكثر الآن غير مثقلين باثاثنا فقد نهبوا الاريكة (الكنبة) لانني لم ارتح عليها قط قبلاً . اما كل الاحجار لم يستطيعوا ان ينهبوها وسيكون لنا مقر رغماً عنهم بقلب فرح يفعل خيراً مثل الدواء» وقال ايضاً — «قد صمم البوير على اغلاق البلاد

ولقد عزمت على افتتاحها وسترينا الايام من منا يفلح فاما ان افتتح طريقاً في البلاد او اهلك

ولذلك شرع لفنجستون في السفر سريعاً في برية كالاهاري في عربة وقد سر من هذه السفرة كثيراً وقال عنها انها اشبه بنزهة يسر منها كل من لا يتأنق في مأكله ويلتذ بالوجود في الهواء الطلق وبينما كان يتقدم الى جهة الشمال على هذه العيشة التي وان كانت خشنة لكنها صحية عاين عجائب كثيرة وتعب اتعاباً جمة وخاطر مخاطرات وافرة ورأى حومات النعام برياشها السوداء والبيضاء والسمراء وعند ما كانت تركض مذعورة يظهر طول خطوتها اربع عشرة قدماً . وكان يسمعها تزأر في النهار بصوت عال يشبه زئير الاسد في الليل . ومرة قتل حية هائلة المنظر وكانت تنيناً جبلياً طوله مضاعف طول قامة الرجل وسمكه سمك فخذه وكثيراً ما كانت تخرج الاسود على نور القمر وتقترب الى المحلة ليلاً وتزمجر لتريع النيران ولكنها كانت تخاف من النيران الوقدة في المحلة لهذا الغرض وهكذا وصلوا الى السهل المتسع في الشمال بالقرب من المكان الذي كان يسكن فيه سابتيوان وقد رأى لفنجستون هناك قطيعاً من الجواميس مصطفاً على شبه دائرة ورؤوسها الى الخارج وتهز قرونها

بشدة وتجأر جئيراً عالياً بغضب لتصد بعض الاسود الحنق عن الهجوم لان الأسود كانت تحاول ان تثب في وسط الدائرة لتقتنص عجول الجاموس الصغيرة التي كانت محروسة بامان في وسط الدائرة

وبعد ما اخترق البرية دخل في البلاد الخضراء حيث تكثر الامطار ورأى الاعشاب الطويلة قد اخرجت بزورها وزهور الغابة مفتحة والعصافير تزقزق بسرور وهي ترفرف على الاشجار وتشرب من البحيرات المملوءة ماء وكان الماء الذي على البحيرة دافئاً من حرارة الشمس انما لاحظ لفنجستون اثناء عبوره بركة بان الماء في القاع بارد ولذيذ ووصل الى موضع بهج مملوء من الكروم المحملة عنباً لذيذاً وكانت الافيال تأكل ذلك العنب وتلتقم عناقيد كبيرة دفعة واحدة في افواهها

ومرة كان سائراً في ممر جميل نزعت منه اغصان الاشجار وكان ذلك الوادي الصغير محاطاً باشجار الغابة وفي وسطه يجري مجرى ماء صغير ورأوا في ذلك الممر قطيعاً من الوعول الجميلة ولكن الأريل طويل القرون وحمر الوحش المخططة كانت تستنشق الهواء مظهرة الاستغراب والاشمئزاز برؤيتهم حيواناً غريباً (انساناً) مرتاداً مملكتهم . ورأى كذلك نوعاً من الكركدن الابيض اللون

يتخطى على مهل على شاطئ المجرى مفتشاً على موضع مناسب مملوءاً وحلاً لينزل ويستحم فيه وكان قرنه كبيراً جداً وعيناه صغيرتين حتى انه لم يقدر ان يبصر لفنجستون ورجاله اما الجواميس البرية ذات الشعر الاشعث فحملقت بعيونها وهزت قرونها وهي واقفة في ظل الاشجار التي على التل مقابل الوعول

وفي صباح احد الايام قبل بزوغ اشعة الشمس في الفجر جاء اسد واقترب من العربات ودار حولها وقصد لفنجستون ان يطلق الرصاص عليه على نور الفجر فعند ذلك فتح ذلك الاسد فكيه وهز عرفه وطوّح ذنبه وزأر بكل قوته مؤملاً ان يزعج الثيران حتى تهرب وعندئذ يتمكن من اقتناص احدها وقتله لكن الثيران وقفت بدون حركة ثم اتت اسود اخرى وزأروا كالاول جميعاً لكن لم يؤثر زئيرهم في الثيران وبعد ذلك مشى الاسود مشمئزين وسمع لفنجستون دمدمتهم الدالة على غيظهم

ووصلوا اخيراً الى نهر جارٍ متسع لا تقدر العربة ان تعبره لانه ليس لديهم رمث (مرمة) يعبرون عليها ولكن كان نوع من الرمث عبارة عن فلائك صغيرة مرتبطة بعضها ببعض موجود في احدى العربات وعليه قد تركوا العربات وقذفوا بالرمث الى ان وصلوا

سهل ماؤه رقراق يغطي القدم وبه اعشاب تصل الى الركبة واصطادوا ظبي ماء وخاضوا الى ان وصلوا الى ارض جافة وبها اشجار كثيرة وجمعوا بعض الحطب واشعلوا ناراً كبيرة وطبخوا الظبي وتعشوا وناموا آمنين . وفي الصباح تسلقوا اعلى الاشجار ورأوا من اعالي الاشجار بعض الجزر في وسط النهر وظهرت كانها تجعل عبوره مستطاعاً ولذا نزلوا من على الاشجار ثانية وحاولوا ان يصلوا الى الجزر خائضين وبينما هم يخوضون تجرحت ايديهم وتمزقت ثيابهم بنوع من العشب الخشن بين قصب البردي وكان السوسن البري يربط قصب البردي مع بعضها حتى انهم لم يستطيعوا ان يمروا فيها الا بعد ما داسوا عليها حتى صارت مسطحة وتمزق بنطلون لفنجستون وتجرحت ركبتاه ولذا قطع منديله قطعتين وربط ركبتيه بهما وفتشوا كل ناحية الى ان وجدوا جهة فيها قد فتح فرس البحر طريقاً برأسه الهائل اما المياه التي كان يعوم فيها الحيات وكلاب البحر فكانت عميقة حتى لا يستطيع الانسان ان يخوضها ولذا التزموا ان يرجعوا وهم بكمال التعب وناموا في كوخ قديم بجوار القصب والبعوض يطن في آذانهم ويلسعهم

وكان امام لفنجستون احد امرين اما ان يرجع او ان يترك

العربات ولكنه ابى النكوص كما هي عادته الى ان يجرب الامر مرة بعد الاخرى ويقتحم الموانع والعوائق وفي الصباح صعدوا على رابية (يتخذها النمل كمسكن له) على علو ثلاثين قدماً ومنها رأوا نهيراً صغيراً يصب في نهر تشوب هذا ولذلك رجعوا الى الرمث وعبروا به النهر العميق. وبينما هم في وسط النهر اذا بعسنت (فرس بحر) صعد بجوارهم بغتة كانه جزيرة بركانية فمروا بجانبه والامواج التي عملها من رجه للماء دفعت الرمث حتى زلق بسرعة بعيداً عنه. وصاروا يقذفون من الظهر الى الغروب ولكنهم لم يجدوا منفذاً في وسط القصب وقبل ان يخيم الظلام اكتشفوا قرية للماكولولو على الشاطئ الشمالي وبها اناس كان قد قابلهم لفنجستون في سفرته السابقة فتطلع فيه الماكولولو مندهشين كانهم نظروا جنية وقالوا انه نزل علينا من الغيوم ومع ذلك اتى الينا راكباً عسنتاً فقد كنا نظن انه لايستطيع احد ان ان يعبر نهر تشوب بدون علمنا لكنه قد سقط بيننا كعصفور طائر

والآن لفنجستون كان بين اصدقاء له واخذوه في الزوارق وعبروا به نهر تشوب فيها وفكوا عرباته وعدوا بها في ذات الزوارق مربوطة معاً وعبروا التيران عائمين في النهر وهم يغوصون بينهم كانهم

تماسيح وليسوا بشراً ثم ساروا الى لنيانتي عاصمة الماكولولو فاندفع سكان الماكولولو باجمعهم وكان يبلغ عددهم ستة آلاف ليروا عربات لفنجستون لانهم لم يروا عربة في حياتهم وجعل صديقه القديم ينادي من ام رأسه في حضرة لفنجستون ويقول — ألست انا ناظراً الآن الى زميل سابتيوان أو لست ناظراً الى ابي سيكيليتو؟

ان سابتيوان الشجاع السريع الركض قدمات وابنه سيكيليتو الذي كان في الثامنة عشرة من عمره كان رئيساً في مكانه لان اخته ماموشيزان رفضت الرئاسة فاخذ ذلك الشاب سيكيليتو ان يحب لفنجستون داعياً اياه «ابي الجديد» ومن ضمن تعبيراته التي كان يعبر بها للفنجستون عن محبته قوله — ان قهوتك لهي اطيب مذاقاً عندي من قهوة التجار لانهم انما يحبون العاج الذي اعطيه لهم اما انت فتحب شخصي

وفي احد الايام ركب لفنجستون وسيكيليتو على الثيران وارتحلا من لنيانتي في مقدمة طابور طويل من جماعة الماكولولو ووقف النساء والاولاد يرقبون الموكب وهو سائر في طريقه المنحنية وملابس رؤوس اولئك السود الغريبة الشكل كانت تهتز اثناء سيرهم وراء لفنجستون فكان احدهم رابطاً على رأسه جزة شعر بيضاء

مأخوذة من اطراف اذناب الثيران . والآخر كان يمشي بعجب وعلى رأسه حزمة كبيرة من ريش النعام وآخر يظهر على وجهه سمات الشراسة ويلبس على رأسه شعرعرف الاسد. وبعضهم كان معهم دبابيس (نبابيت) من قرن الخرتيت معلقة على جوانبهم وتتطوح اثناء سيرهم. وبعضهم كانوا حاملين اتراساً ومزاريق خفيفة وكثيرون كانوا حاملين الاحمال

وبينما هم سائرون كانوا يضحكون كثيراً على شباب الماكولولو الشجعان الذين كانوا يقلدون رئيسهم فيقفزون على ظهور الثيران وبما انه لم يكن لها سروج ولا ألجمة فكانوا يقعون ثانية وكان هؤلاء ايضاً يصطادون بحرابهم غزلان الماء ذات القرون المفتولة لكي يقتاتوا بها وكثيراً ما كانوا يطاردون حمر الوحش المخططة السريعة التي تجري في السهول بينما كانت الجواميس تهرب قطعاناً كبيرة وصوت حوافرها مثل الرعد

ولما قرب الليل كانوا قد اقتربوا الى قرية لشعب الباروتسه ونساء القرية جميعاً كنَّ قد خرجن مزغردات ليستقبلن الرئيس لان سيكيليتو كان رئيساً على كل تلك البلاد وكن يصحن قائلات —

يا ايها السبع العظيم — يا رئيسنا الهمام — يا مولانا اعطنا نوماً . الذي معناه — اجعل اعداءنا ان يتركونا في طمأنينة

ثم قدموا لهم طاسات مملوءة لبناً مجمداً ليأكلوا اما الرجال فنصبوا الخيام النقالي حيث نام فيها لفنجستون وسيكيليتو وحدث مراراً اثناء نومهم ان جرت الفيران على وجهيهما ومرة دخلت كلاب القرية الجائعة فاكلت حذاء لفنجستون ولم تترك منه سوى النعل اما اكواخ الماكولولو انفسهم فكانت عبارة عن سقف من البردي والقش اشبه بقبعة الصيني على حائط مستدير مصنوع من اوتاد كبيرة مملطة بالطين

اخيراً وصلوا الى نهر زمبيزي العظيم الذي يبلغ عرضه ميلا ونيف وهناك وقف الرجال في اسطول بحري مؤلف من ثلاثة وثلاثين زورقاً وكانت تسير تلك الزوارق بسرعة بواسطة مقاذيف طويلة طولها ثمان اقدام وعندما تقل مياه النهر كانوا يستعملون هذه المقاذيف كمدرة لدفع القوارب بها. والمائة والستون رجلاً الذين كانوا من قبيلتي الماكولولو والباروتسه مختلطتين معاً فقد كان لهم فرصة لذيذة اثناء سير الزوارق على الماء فكانوا احياناً ينقضون فوق الماء ويسابقون بعضهم بعضاً على آخر ما يمكنهم من السرعة

وقد سر لفنجستون من ملاحظته للغابة التي كان يجري فيها ذلك النهر فرأى اشجار التدمر الشاهقة تظلل نخيل البلح الصغيرة من حرارة الشمس الملهبة في الجو الخالي من الغيوم . ورأى على الشاطئ الافيال تصوت بصوتها العالي والعسنت الضخم القصير السيقان ترعى الحشيش او تشمس نفسها وتنزل في الماء لتعوم وتنفخ نافورة ماء من خياشيمها الواسعة على علو ثلاثة اقدام واحياناً كان ينظر العسنتة عائمة وصغارها راكبة على اعناق امهاتها

ثم سمعوا صوت عجيج المياه عن بعد فلما داروا حول الزاوية رأوا ان النهر الذي عرضه نحو ميل يصب على شلالات ومنحدرات صعبة بحيث لا يمكن ان يمر به قارب وينجو فاضطروا اذاً ان يرفعو الزوارق من الماء ويحملوها فوق البر على بعد ميل حتى يتجاوزوا تلك الشلالات

وبينما هم راجعين للنزول الى النهر مرة ثانية رأى لفنجستون وجماعته زمرة من الصيادين الافريقيين على شاطئ النهر مذعورين خوفاً وهاربين وبما ان رجال لفنجستون كانوا متعودين طول حياتهم قبلما يعرفونه على نهب الغرباء اندفعوا وراء اولئك الصيادين صائحين بصوت عال ونهبوا منهم كل امتعتهم . فاغتاظ لفنجستون منهم وقال

لهم بعبوسة ان ينزلوا كل شيء معهم الى الارض ويتركوه لانه وان كان لفنجستون شفوقاً كثيراً نحو رفاقه الافريقيين لكنه يكون شديداً عليهم عندما يقترفون ذنباً وكانوا يحترزون عندما يغتاظ منهم ولذلك اطاعه اولئك الجنود الشرسون وأرجعوا ما نهبوه من القدور والمقالي والثياب لاربابها

وصادف لفنجستون في هذه السفرة بعضاً من العرب النخاسين وهؤلاء كانوا يستطيعون ان يستاقوا قرية برمتها بما فيها من الرجال والنساء والاولاد اسرى وكانوا يوثقون الاسرى بايديهم رابطين اياهم معاً بقضبان ذات شعب مربوطة في اعناقهم فيموت منهم في الطريق بالمئات ومن يعيش منهم يشغلونه في الزراعة تحت سياط الوكيل المعين لحراستهم

فمقت لفنجستون هذه النخاسة وابغضها بغضاً جماً ومن ثم شرع في ان يجعل احد اغراضه في الحياة هو ان يزيل النخاسة من افريقيا . وكان يقول للعرب ان الافضل لهم ان يجعلوا الاولاد يكبرون ليعزوا امهاتهم وهذا احسن بكثير من اخذهم الى عبر البحر وبيعهم للغرباء

ولما رجع لفنجستون واصدقاؤه الى لنيانتي افتكر في غرض

يدل على البسالة والاقدام وذلك في ان يمنع اولئك الرجال من اسر الافريقيين وان يجعل حداً لتلك الحروب المخيفة وانواع القتل المفزعة التي رآها شائعة في القرى بين اقوام الافريقيين

ورأى ان ما يعاونه على القضاء على هذه الشرور واخراج غرضه الى حيز الوجود هو ايجاده طريقاً من قلب افريقيا (حيث هو الآن) الى شاطئ البحر وافتكر ان الناس يستطيعون ان يأتوا في تلك الطريق حاملين قصة محبة يسوع الحلوة وان الافريقيين يمكنهم ان ينقلوا العاج والبن والقطن والبضائع الاخرى في تلك الطريق ومن ثم تأخذ التجارة المحللة ان تحل محل تجارة الرقيق

وهكذا عزم لفنجستون مكتشف الطريق ان يقوم بهذا المشروع الخطير وعزم عزماً لا تثنيه الوحوش الكاسرة ولا الناس المتوحشون ولا الاوحال ولا الغابات ولا الحميات ولا حنينه نحو وطنه وكان شعاره قوله — «ينبغي ان افتح طريقاً الى اواسط افريقيا او اهلك»

الفصل السابع

في الزورق والارضه المطروقة في الغابة

ان لفنجستون عند ما اخبر سيكيليتو بانه عازم على ان يجد طريقاً الى شاطئ البحر دعا سيكيليتو مشعوذ القرية (كعادة هنود اميركا الشمالية) ليبت له اذا كان يعاونه في امره ام لا . فاجتمع اشراف القرية وجلس لفنجستون مع سيكيليتو في الوسط فسأل رجل شيخ قائلاً «الى اين يأخذكم هذا الطبيب الابيض ؟ انه قاصد ان يرميكم وتظهر رائحة الدم على ثيابكم مقدماً» ولكن الآخرين كانوا يفضلون ان يمضوا مع الطبيب فأعاروه سبعة وعشرين رجلاً ليحملوا له امتعته ويساعدوه فلو كان لفنجستون مضطراً ان يدفع اجرة كل الحمالين معه كما يفعل بقية الرواد والمكتشفون لما امكنه قط ان يعمل شيئاً لان دراهمه كانت قليلة للغاية لكن مقدرته الغريبة في جعل الافريقيين ان يعتمدوا عليه ويثقوا به ساعدته على وجود حمالين امناء يتبعونه محبة فيه فقط

فرحل لفنجستون هو والسبعة والعشرون الذين معه تلك

الرحلة الهائلة لاكتشاف الطريق وترك عربته تحت حراسة الماكولولو في لنيانتي فكان رجل يحمل صندوقاً من الصفيح داخله قليل من الثياب وآخر يحمل خزانة العقاقير التي له وآخر يحمل كتبه التي اجلّ ما فيها كتابه المقدس وآخر يحمل فانوسه السحري وآخرون كانوا يحملون خيمته السفرية الصغيرة وفروة غنم لاجل الغطاء وجلد فرس لاجل الفراش وآخرون بعض الآلات التي تعلم استعمالها اثناء سفره على الباخرة جورج من بريطانيا لو تذكرون. ولم نعلم ان احد الانجلوسكسونيين قد سافر سفرة طويلة كثيرة الاخطار كهذه بمهمات قليلة كمهماته ولكن كان اعتقاد لفنجستون ان افضل امتعة السفر هي الذكاء والاقدام وقد شيعهم الرئيس سيكيليتو الى نهر التشوب الذي هو فرع من نهر زمبيزي الذي كان مملوءاً من افراس البحر ومنها نوع يسمى بالأعزب شرس للغاية ورأى لفنجستون احد الزوارق كان قد تكسر اربا بواسطة هذا النوع من العسنت (فرس البحر) ورأى آخر قد طارد بعضاً من رجاله لكنهم نجوا منه. ورجع سيكيليتو عند ما رأى لفنجستون ورجاله ركبوا زوارقهم في أمان وظهر عظم محبته للفنجستون بان اعاره قاربه الخاص وبينما كانوا مسافرين في النهر ويصلون الى القرى

وجد ان سيكيليتو كان قد ارسل اوامره لهم مقدماً قائلاً — «انه يجب ان لا تدعوا الطبيب يمضي جائعاً» وسافرت زوارقهم بسرعة الى نهر تشوب حيثما يتصل بنهر زمبيزي الكبير ولما قذفوا الى جهة اليسار ساروا ضد التيار لان نهر زمبيزي يخترق افريقيا الى الشرق اما لفنجستون فكان يفتش عن طريق الى الشاطئ الغربي ووصل الى قرية كبيرة للماكولولو تدعى سيشيكي ومكث فيها اياماً وكان يعظ احياناً على نحو ستماية شخص منهم على شاطئ مرتفع من النهر تحت شجرة تدعى شوك الجمل ومرة في احد هذه الاجتماعات رأى الرئيس موريانتسان ان بعض الشبان عازمين ان يسلخوا احد الحيوانات عوضاً عن ان يسمعوا الكرازة فوقف الرئيس ورشق عصاه على رؤوسهم ليجعلهم منتبهين الى الكرازة

ولقد تألم لفنجستون كثيراً في هذه الرحلة من توالي الحمى الخبيثة عليه تلك الحمى التي تجعل رأس الانسان وجسمه في ألم لا يطاق وتضعف الانسان كثيراً بحيث لا يقدر ان يقف ان لم يعاونه آخر . وبعد ما رحلوا من سيشيكي صاعدين في نهر زمبيزي تجمع الناس عليهم واعطوهم بعض الاثمار الغريبة مؤونة لهم واسماء بعض تلك الاثمار جميلة مثل «ماموشو» التي معناها ام الصباح .

الحمالون يحملون القماش الذي هو اساس المعاملات للمعيشة بواسطتها

وسافروا اياماً كثيرة واذا أردنا ان نسمع قصة الامور الغريبة التي قد حدثت في تلك السفرة الطويلة فعلينا ان نرافقهم اولاً في الزورق يوماً ما . فنجد ان لفنجستون يستيقظ هو ورجاله قبل الساعة الخامسة صباحاً اي عند شروق الشمس ويكون الضباب الابيض فوق وجه الماء ونسمع صوت الحطب في النار فيكون قد اشعل احد الرجال النار ووضع فوقها غلاية ماء وبعد بضعة دقائق نشم رائحة القهوة التي عملها ثم يشرب كل واحد منا . ثم يسرع الرجال ويشحنون الزوارق ثم ننزل في القوارب الصغيرة ونسافر فيها اجمل ساعات النهار اي الفرصة التي قشعت فيها الشمس الضباب عن وجه الماء لكنها لم تصل الى درجة حرارتها الشديدة ونسمع نوتية الزوارق من الباروتسا يصيح الواحد للآخر اثناء تقذيفهم داعين بعضهم بعضاً بالكسالى والتراخين وغير ذلك من الاسماء وصدور اولئك النوتية عريضة واعصاب اذرعتهم مفتولة انما سيقانهم ليست قوية كثيراً لانهم يصرفون اغلب وقتهم في الزوارق

ثم نسمع صوت عجيج الماء وسرعان ما نصل الى الشلالات حيث التيار يندفع بصوت عال بين الصخور فينهض الرجال في

الحال ليحافظوا على الزوارق من ان تتحطم بالصخور التي في وسط الماء ويحفظون القارب ويجرونه الى الماء الهادئ

وكنا احياناً نرى اليمام بانياً عشه في افرع الاشجار المدلاة على المياه فوق تيارات الماء المندفعة ومع ذلك موجود في وكره بهدوء وكنا نرى طائر الكركي الذي يصيد السمك واقفاً على طرف جذمور شجرة عتيقة ويصرخ بصوته وا وا وا : ونرى ايضاً طائر الدرة الخضراء ذات الاكتاف الصفراء تصيح وتزعق وديك البحر ينزرق فوق الماء مثل البرق والدوّاس (الفامنكو — اسم طائر) القرمزي جالساً وشاخصاً الى الاسفل مراقباً السمك الصغير الذي في الماء الرقراق ليخطف السمكة التي تناسب ذوقه

ثم يقول ماشاوانا رئيس المقذفين للفنجستون: تطلع وانظر سلحفاة الماء الملقاة على ظهرها وعديمة الحيلة فانها قد انقلبت وهي تحاول الصعود الى الشاطئ وذلك علامة يقينية تدل على ان سفرتنا ستكون موفقة ويرى عن بعد في الماء القليل الغور ابو جراب (طائر) ابيض بمنقار طويل وحوصلة كبيرة وقد امسك سمكة لونها كلون الفضة واذا بصوت اجنحة منقضة من العلاء فيرفع ابوجراب بصره الى فوق ويرى جناحي صقر السمك السمراوين وهي منقضة

عليه فيظن انه نازل عليه ليقتله فمن خوفه يفتح منقاره الهائل ويصرخ صرخة عالية وفي اثناء ذلك يخطف الصقر السمكة من حوصلته ويطير منتصراً . ومن ثم يبدأ ابو جراب ان يصيد سمكة اخرى كأنه لم يحصل شيء

وعند ما يدور الزورق نسمع طشيش التماسيح وهي مندفعة من الشاطئ في الماء ونرى نوعاً غريباً من حيات البحر كانت تتشمس فوق اغصان الاشجار التي فوق المجرى وعند ما ترانا ترمي نفسها في الماء ولكن قبل نزولها يكون قد قوّسها احد البارو تسا بسهمه الحاد واصطادها لاجل العشاء

وقد كنا نراقب هذه الاشياء جميعها في سفرتنا الصباحية ولكن الشخص الذي كان له عينان حادتان عن عيوننا استطاع ان يرى مائة أمر وأمر اكثر مما رأينا ويظهر لنا انه لا يفلت شيء عن عيني لفنجستون الزرقاوين وهو جالس في الزورق متفرساً في الشاطئ بنظره الحاد ويراقب كل شيء من رؤوس اشجار التدمر واعشاب البحر المعرشة والزهور الى نوع التربة التي يجري فيها النهر وكان يقدر ان يرى التربة التي نضت عنها الماء قبلا من تحت مياه النهر

وكان يلاحظ عادات كل الحيوانات من العسنت الهائل الى الحشرة آكلة النمل العجيبة التي تقف على رأسها لتجذب النمل اليها وتهز ذنبها الريشي المخبأ تحته ملقط لتلتقط به النمل وكان يعرف نوع المحصول الذي ينتج من كل قسم في البلاد وكان يعرف الطريق ويرتشد في سيره في تلك القارة المتسعة الغير المطروقة بواسطة النجوم وقدر ان يعيش مدة سنة كاملة بين اناس هم بحسب الطبيعة قبيحو الألفاظ كثيرو الشجار معجبون بانفسهم وشرسون ومع ذلك كان طاهر السيرة والسريرة قوياً ومسالماً ويقود مساكه ومسلك رفاقه المتوحشين — قدر على ذلك بواسطة كتاب هو له كل مؤونة المكتشف الا وهو الكتاب المقدس

وعند ما كانت تعلو الشمس الى نحو منتصف الجو كان الرجال الذين قذفوا طول فرصة الصباح يحتاجون الى الراحة فيرسون ويأكلون بقايا عشاهم الليلة الفائتة مع قليل من البسكويت المغطى بالشهد الذي كانوا يستخرجونه من ثقب شجرة أوى اليه النحل البرّي وبنى قفيره ثم في وقت الظهر عند ما تكون حرارة الشمس مؤثرة على الرجال الذين يرشحون عرقاً نرحل ثانية لانه ان كان

لا يجب علينا ان نضيع من قوتنا في العجلة فلا يجب ان نضيع وقتنا في الكسل والتراخي

وكنا وقتئذ نراقب النهر من تحت مظلة كبيرة وعند عصاري النهار حينما يتصاعد البخار فوق نهر زمبيزي يعترينا الخمول وتبطؤ مقاذيف المقذفين فمن ثم يفتشون على مرسى للمبيت فنرسو تعابى وكنعاسى ثم نطبخ حنش الماء الذي قد سبقنا واصطدناه وننعشى وعندئذ يؤتى بالثيران التي كانت سائرة طول يومها في الغابات الى محل المبيت ثم يسرع الرجال فيقطعون اغصاناً ويضعون اكواخاً صغيرة للمبيت فكانوا ينصبون قضباناً كبيرة مشعبة مائلاً احدها على الآخر من اطرافها العليا ويكون ذلك تحت شجرة مسقفة فوقنا ثم توضع الاغصان فوق القضبان المشعبة وتربط بالشجرة المسقفة فوقنا بنسائر من قشر الاشجار ثم يؤتى باعشاب طويلة كطول الرجل ويغطى بها الكوخ لتتدحرج الامطار من عليها بعيداً وكانت تصف الاكواخ حول نار المستوقد ويترك موضع للثيران في الوسط وكل كوخ له فتحة لجهة المستوقد ومقفل من الخلف . ويعمل ذلك في ظرف ساعة من الزمن ولا يكون الرجال بعد في العراء ويلتف كل واحد في حرامه وينامون ولا يلبثون الا

ويرون قائدهم العظيم دائراً حولهم على نور القمر ويرى ان رفاقه النائمين جميعاً في أمان ثم يبتدئ ان يكتب يوميته التي منها استطعنا ان نأخذ هذه القصة كلها ثم يصلي لابيه السماوي طالباً منه ان يحمي المحلة ثم يدخل في خيمته النقالي وينام ثم آخر الكل يأتي ماشوانا رئيس زورق لفنجستون الأمين ويفرش عند باب لفنجستون وينام فاذا اتى انسان أو وحش ليؤذي لفنجستون فلا بد ان يمر على جسم ماشوانا اولاً

وهكذا استمر السفر الطويل في ايام مثل هذه التي فيها تبعنا لفنجستون وكل يوم يأتي بمخاطراته ومتاعبه الامور التي كانت تستدعي اظهار لفنجستون شجاعته ومهارته في التفنن والاختراع . وبهذه الصورة سافروا نهر زمبيزي الى ان استدارت شواطئه الى جهة الشرق فتركوه وساروا الى الجهة الغربية حتى وصلوا الى نهر كاساي ثم ساروا الى جهة الشمال الغربي وعبروا نهر كوانغا وساروا الى نهر لوكالا الذي يصب في نهر كوانزا وهكذا ساروا باستقامة الى الغرب حتى وصلوا لواندا التي على الساحل

ولم يكن السفر في الاراضي التي يحكمها سيكيليتو صعباً كثيراً ولكنهم لما جاوزوها كثيراً وجدوا ان النصرات التي فيها قهر

والد سيكيليتو تلك القبائل قد جعلتهم يشتبهون فيهم وتحوم حولهم الظنون وكلما كانوا يقتربون الى الساحل الغربي وجدوا الاهالي في حالة البؤس والتعاسة التي سببتها المتاجرة البرتغالية بالرقيق حتى انهم لم يمنعوا فقط تقديم الطعام للفنجستون بل لم يجعلوه ان يمر في ارضهم بدون ما يقدم لهم هدايا . فكان كل رئيس قبيلة يقول لهم اعطونا رجلاً او ثوراً او بندقية او عاجاً ويهددونهم بالقول ان لم تبرزوا الهدية حالاً فعلى لفنجستون اما يرجع او يموت

فبالطبع كان يأبى كل الاباءة ان يسمح لهم برجل لان ذلك معناه ان سلم صديقاً امينا للاسترقاق اما الثور فندر ما امكنه ان يعطي لان معه ثيراناً قليلة وهو في اشد الحاجة اليها . وكذلك لا يستغني عن البندقية فمن اين ياترى يقدر ان يحصل على طعام لرفاقه نعم كان معه من العاج لكنه قليل عدا ذلك فان العاج الذي كان معه كان من سيكيليتو ليبدأ به في التجارة بين الماكولولو الذين في لنيانتي والبرتغاليين الذين في لواندا

وقد حدثت مأساة من هذا النوع بين قبيلة الشيبوكوي وتحرير الخبر انهم لما وصلوا الى قرية الرئيس نجامبي في يوم السبت ٤ مارس سنة ١٨٥٤ اي قبلما يختم لفنجستون الحادية والاربعين من

عمره باسبوع عزموا ان يرتاحوا يوم الاحد فذبحوا احد ثيرانهم المعدة للركوب ليأكلوه وارسلوا بعضاً من لحمه الى الرئيس نجامبي بصفة هدية فحضر رسول من الرئيس في صباح يوم الاحد وعند وصوله قال بوقاحة — هكذا يقول الرئيس يجب ان تعطونا اما رجلاً او ثوراً او بندقية او بارود او ثياباً او اصدافاً والا فارجعوا على اعقابكم . فابي لفنجستون اجابة هذا الطلب . وما يشعرون الا وبعد الظهر قد هوجموا بسكان نجامبي الذين قد اتوا واحتاطوا بمحلهم وكان الشباب المقاتلون منهم مشرعين سيوفهم ومصوبينها في وجه لفنجستون وهم يصيحون بحنق شديد وبعضهم صوبوا بنادقهم على لفنجستون وهم يحنون رؤوسهم الواحد للآخر كانهم يقولون يجب ان نعامله بهذه الصورة اما لفنجستون فكان جالساً على كرسيه بكل سكينة وهدوء وغدارته ذات العيارين (الروحين) موضوعة فوق ركبتيه وقال للرئيس بكل هدوء تفضل اجلس وربما تعجب الرئيس من نفسه اذ رأى نفسه مطيعاً للفنجستون فجلس فقال له لفنجستون لماذا تطلب مني اجرة على المرور في ارض الله ابينا كلنا؟ فحار الرئيس على امره ولم يحر جواباً لان من عادة قبائل الافريقيين ان يسموا الارض (ما عدا البساتين) مشاعاً. ولكنهم ما زالوا يرغمونه على دفع

شيء لهم وشددوا كثيراً في طلب رجل يسلم اليهم عبداً اما لفنجستون فكان يفضل الموت على اجابة هذا الطلب فقدم لهم قميصاً فطلبوا منه اكثر ثم قدم لهم خرزاً وفوطة كبيرة لكنه كلما قدم لهم اكثر طلبوا اكثر بعد ذلك اندفع الرجال المسلحون وطوحوا باسلحتهم وصرخوا الموت الموت

فبالحق انها كانت ساعة خطيرة جداً فقد اندفع رجل على لفنجستون ليقتله فاسرع لفنجستون ووضع فوهة بندقيته في فم الرجل فهرب ذلك الشاب راكضاً لحياته وقال لهم لفنجستون نحن لا نكون البادئين بالضرب فاذا كنتم تبدأون انتم فجناية الدم تقع على رؤوسكم . اما رجاله المسلحون بالمزاريق فقد احتاطوا بالرئيس نجامبي وهذا اذ رأى انه اذا اطلق رجاله النار على لفنجستون يقتل هو نفسه بايدي الماكولولو انهى المسألة بسلام وعندئذ تبودلت الهدايا وسار لفنجستون وقومه بامان . فترون من ذلك ان اللوم على هذه البغضة والنهامة لا يقع على الافريقيين بل على تجار الرقيق الذين قد عودوهم على اخذ عبد اسير من كل قافلة تمر بارضهم

وفي ذات يوم قدم لفنجستون ثوراً لقبيلة طلبت منه اجرة مرورهم في ارضهم فقالوا له لا نأخذ هذا لان ذنبه مقطوع وموضوع

فيه عقاقير السحر . فهذا الامر اوجد عند لفنجستون فكراً حسناً ضحك منه كل اتباعه وذلك بان قطع كل اذناب ثيرانه عن آخرها فلم يعودوا يطلبون منه ثوراً .

وكان كثيراً ما يشغل فانوسه السحري لهم ليلاً ويبشرهم بواسطة الصور التي يعرضها به وكان احد الرؤساء المدعو شنتي مشتاقاً لأن يرى صور الفانوس السحري فجمع كل قومه ومن ضمنهم نساءه الكثيرات للفرجة فاراهم لفنجستون اول كل شيء صورة ابينا ابرهيم وهو رافع السكين ليذبح ابنه اسحق فأصغين النساء بانتباه وهو يشرح لهن الصورة لكنه عند ما رفع الصورة ليضع غيرها اتجهت نحوهن صورة ابرهيم مشرعاً سكينه فصرخن كلهن على الفور يا امي — يا امي وهربن متدهورات الواحدة فوق الاخرى وهدمن اكواخ اصنابهم في الظلام وتلك الاكواخ كان يقام فيها تماثيل خشبية تسمى فتيش وكانوا يعتقدون انها مسكونة بالارواح وتلك الارواح يجب ان تقتات لتجعلها حسنة الخلق فلا تغضب عليهم

وكثيرون من اولئك القوم لم يكونوا مصدقين ان لفنجستون هو آدمي بل افتكروا انه من قوم يسكنون تحت البحر فعند ما كان يرفع قبعته عن رأسه كانوا يقولون مندهشين — هل هذا

شعرٌ؟ كلا بل هو عرف اسد وليس شعر البتة . فكان يجيبهم لفنجستون نعم انه شعري الاصلي الحقيقي مثلما كان شعركم قبلما تشوطه الشمس وتجعده (وتكرته) ثم كان يفتح ازرار قميصه ويريهم صدره الابيض ويقابله لهم بوجهه الذي قد لفحته الشمس فصيرته مسمراً تقريباً نظير وجوههم واخيراً صدقوا انهم نظراً لوجودهم في الشمس دائماً عراة تقريباً فقد لفحتهم الشمس وشوطتهم وصيرتهم سمر اللون وانه من الممكن ان يكونوا اخوة للفنجستون

ثم انهم بعد ما تركوا نهر زمبيزي والزوارق عاد لفنجستون واستعمل ثوره الشرس عريض الظهر سنباد وسافر راكباً عليه ولو انه كان جموحاً لان ظهره كان ارق من بقية الثيران الا ان قرنيه قد كسرا وتدليا عن جانبي رأسه لكي لا يؤذي راكبه ويطعنه بهما في خصره . على ان سنباد هذا كان احياناً يجري بغتة ويحيد عن الطريق المطروقة ومرة جرى تحت نباتات معرشة فامسكت بلفنجستون وواقعته على رأسه

وذات يوم وهم يخوضون نهراً عثر سنباد في نقرة في قاع النهر وسقط لفنجستون على رأسه في الماء ومرة اتوا بعد الظهر الى نهر ملآن ماء واسم ذلك النهر «ابن لوكي» فاندفع سنباد في النهر وغطس وحاول

ان ينقلب على لفنجستون اما هو فقفز بعيداً عنه وعام الى الشاطئ الآخر . نعم قد فزع للغاية من هذه الحادثة حتى ان عشرين من رجاله اندفعوا وراءه لينقذوه وبعض منهم في حميتهم قفزوا في الماء وتركوا اردیتهم تعوم في النهر ووصل لفنجستون الى الشاطئ على آخر رمق لكن احد رجاله امسك بذراعه وآخر احاطه بذراعه ورفعه الى البر

واندهشوا لما رأوه بارعاً في العوم لانه عام عوم الضفدعة اما هم فيعومون عوم الكلاب انما سر كثيراً لانه رآهم قد اهتموا به للغاية وفي تلك الليلة بينما كان لفنجستون يدير نفسه لكل جهة امام النار ليجفف ثيابه اتى اهل القرية التي وصلوا اليها لكي يخيفوا رفاق لفنجستون الافريقيين بان يخبروهم عن الانهار الكثيرة التي في طريقهم فقهقهوا ضاحكين عليهم وكانت عيونهم واسنانهم البيضاء تلمع في ضوء النار واشاروا الى لفنجسون بافتخار وقالوا — جميعنا نستطيع العوم ومن ذا الذي حمل هـذا الرجل الابيض وعدى به النهر سوى نفسه

وقد امتلأت تلك الانهار وفاضت الوديان بسبب الامطار الغير المنقطعة التي استمرت المدة الاخيرة من تلك الرحلة فقد انصب

المطر وسقط من الاشجار في الغابة ولوث احرمة غطائهم وفراءهم وثياب لفنجستون التي يلبسها في النهار حتى البنادق صدئت من المطر والخيمة النقالي قد تلوثت بالاوحال

ولم يجد لفنجستون مكاناً امينا ليخبئ فيه ساعته من الامطار والاوحال سوى تحت ابطه لانه مراراً كثيرة يكون نازلاً في الماء والاوحال الى حقويه والمطر منهمراً فوق رأسه . وقد اضعفت الحمى لفنجستون حتى صار لا يقدر ان يركب ثوره او يمشي بدون معين . واحياناً يهذي كمن في حلم لكن هذا الرجل الابيض الذي عزم على التقدم في سيره ابى الوقوف او النكوص عن اتمام مأربه الذي وضعه نصب عينيه

وكان القرويون الافريقيون يهمسون احياناً في آذان رفاقه قائلين لهم ان قائدكم الابيض ياخذكم الى الساحل ليبيعكم عبيداً هناك . ومن الغريب انهم بدأوا ان يصدقوا هذا القول . وكيف يصدقونه ؟ ! وبدأوا ان يشكوا ويدخلهم الريب وهددوه بالرجوع الى اوطانهم فقال لهم اذا رجعتم فانا لا بد ان اتقدم في سيري ثم دخل الى خيمته حزين القلب ومكتئباً وانفرد مع ابيه السماوي . ولما رفع بصره رأى راس احد اتباعه متطلعة الى الداخل من باب الخيمة وكان

اسمه موهوريسي فقال — اننا لا نتركك مطلقاً ثم قال البقية — نحن جميعاً اولادك ومستعدون ان نموت لاجلك فقد تكلمنا ما تكلمنا بسبب مرارة نفوسنا اما من الآن فصاعداً فسترى ماذا نفعل

ففرح لفنجستون وتعزى واخيراً بعد سفرهم مدة ستة اشهر بعضها في الزوارق وبعضها على الثيران وبعضها راجلين — سفراً في الآجام والغابات في النهر وفي طمو المياه في الحمى والجوع في اخطار اناس متوحشين ووحوش ضارية — سفر مسافة الف وخمسماية ميل في بلاد لم ترها قط عين ابيض وصل لفنجستون الى سهل مرتفع امام البحر ولواندا وكان ذلك مطمح ابصاره والغرض الوحيد من سفرته هذه.

اما رفاقه الذين لم يسبق لهم ان يروا البحر قط بل لم يصدقوا بوجوده نظروا مندهشين الى الاوقيانوس الذي ليس له حدود وتعجبوا من مياهه الزرقاء اللامعة في ضوء الشمس وقالوا اننا قد سافرنا مع والدنا معتقدين صدق ما يقوله لنا القدماء ان لا نهاية لارضنا اما الآن فكأن الارض تقول لنا — ها انا قد انتهيت وهذا آخر ما بي ولا توجد ارض بعد ذلك.

الفصل الثامن

الغابة المخوفة بالاخطار

ان لفنجستون ورجاله قد تطلعوا في عرض البحر بعد وصولهم الى لواندا ورأوا قلوع مركب بيضاء موجهة سيرها نحو الميناء واذا هي سفينة بريطانية طوافة لمراقبة الشواطئ فعند ما رست وعرف القبطان عن لفنجستون وانه مصاب بالحمى التي انهكت جسمه نزل اليه وافتقده وقال له انك قد اشتغلت وسافرت مدة اربعة عشر عاماً ولم ترتح في خلالها وبريطانيا بجملتها تفرح برؤيتك فتعال معنا الى وطنك لتستريح وترى زوجتك وابنتك وبنيك ثانية

فنظراً لان لفنجستون كان مريضاً وتعباً ووحيداً قد كانت هذه الدعوة له تجربة صعبة لكنه لم يتردد لحظة واحدة بل نظر الى رفاقه الماكولولو الذين قد خاطروا بحياتهم مراراً كثيرة لاجله وعاشوا معه في الاخطار التي احدقت بهم اثناء سفرهم لاكتشاف الطريق وكان قد احضرهم من بيوتهم على مسافة الف وخمسماية ميل وكانوا يدعونه والدهم ولا يمكنهم الآن ان يرجعوا وحدهم فأدار

ظهره نحو البحر ونحو بريطانيا وعزم ان يكون صادقاً في وعده ويرجع رجاله الى بلادهم في لنيانتي

ان شرف الفرسان في الايام القديمة كان يقوم في كونهم يحافظون على وعدهم كل المحافظة وان يكونوا أوفياء للفرسان الآخرين وللنساء اللواتي يحاربون لاجلهن فما اعظم شرف فارس هذه الايام هذا البطل لفنجستون الذي لم يحافظ على وعده في معركة أو في بطولة روائية (خرافية) بل في السير بلا انقطاع مسافة تنوف عن الالف ميل كلها سهول مملوءة من الذباب اللساع وغابات معقدة فقد كان صادقاً في وعده لجماعة افريقيين فقراء جهلاء

وقد افتخر رجال لفنجستون بالبذلات الجديدة المصنوعة من القماش القطني المخطط ومن الطرابيش الحمراء التي قد اهداها اليهم المستر جبراثيل الوكيل الانكليزي المقام لمصادرة تجارة الرقيق وهو الرجل الانكليزي الوحيد الساكن في لواندا وكانوا ينظرون الى البيوت في لواندا وهم مندهشون وحاول لفنجستون في سفراته معهم ان يوضح لهم ان البيوت قد تحتوي على طابقين أو ثلاثة ولكنهم كانوا يقولون انه غير ممكن وجود كوخ فوق الآخر لان اعمدة الكوخ الفوقاني لا يوجد ما يثبتها فيه عدا ذلك فان سقف الكوخ

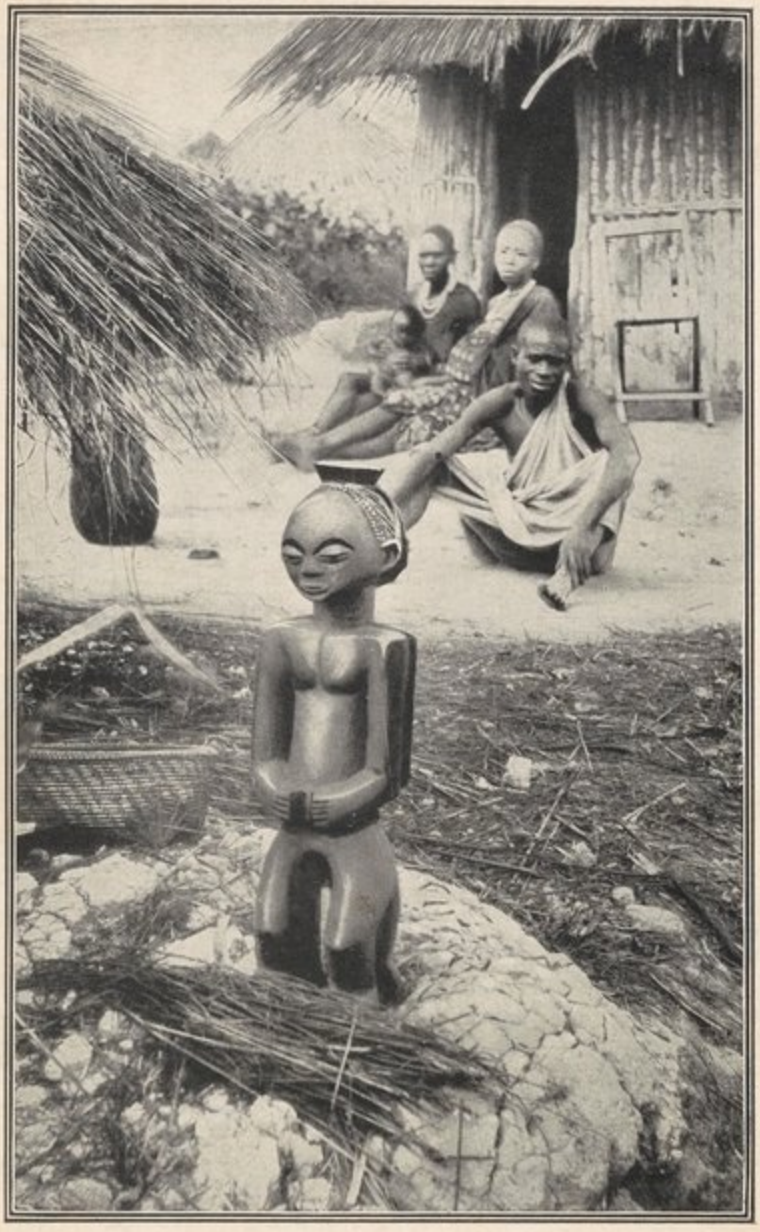

Photo by Harry Johnson.

An African Fetish Image with Basket of Food.

الصنم وسلة طعامه

مقبباً وكيف يمكن ان يبنى كوخ آخر فوقه لكنهم عند ما رأوا بيتاً لاول مرة قالوا — آه انه ليس كوخاً بل هو جبل فيه مغائر

ومن يقدر ان يتصور مقدار اندهاشهم بحيث انهم حملقوا بعيونهم ورفعوا اياديهم عند ما رأوا السفينة الانكليزية واقفة في الميناء وقيل لهم ان يصعدوا على ظهرها — فقد قالوا انه ليس زورقاً بل هو مدينة كبيرة وما هي هذه المدينة التي تتسلقون على حبل للصعود اليها؟ وتصاحب بحارة المركب مع الافريقيين واعطوهم خبزاً ولحماً مما كانوا مجهزيه لغدائهم وبعد ذلك اصيب لفنجستون بالحمى حتى لم يستطع الحركة واشتغل الافريقيون في تفريغ مركب فحم ولم يستطيعوا ان يفهموا كيف انها تسع فحماً كثيراً بهذا المقدار. فقد قالوا — كنا نشتغل من شروق الشمس الى غروبها مدة شهر ونصف ونحن ننقل الحجارة التي يستعملونها للنار ومع اننا تعبنا كثيراً لا يزال باقياً منه مقدار وافر في المركب

وفي تلك المدة كان قد شفي لفنجستون مما المّ به من الحمى وكان قد ارسل يوميته المحتوية على اخبار اسفاره الى بلاده في احدى السفن واستعد الرجال ان يرجعوا الى لنيانتي بلدهم وقدم لهم اهل لواندا هدايا كثيرة منها فرساً جميلاً وبدلة ضابط لاجل الرئيس

سيكيليتو وبدل ثياب لكل رجل منهم وحمار بن لان الحمير لا يقتلها الذباب السام المسمى تستسه كما يقتل الخيل والثيران وقد سر لفنجستون ايضاً لان ضباط السفينة البريطانية قد اهدوه خيمة جديدة وقد ارسلت الاوامر على طول الطريق تقول يجب على الناس ان تساعد السياح ولا تعيقهم

وبعد رجوعهم بعدة ايام وصلوا الى صخور عجيبة هائلة علوها ثلثماية قدم واسم ذلك المكان بنغو اندونغو وهناك قد وصل خبر للفنجستون ان المركب التي ارسل فيها يوميته قد تكسرت بعاصفة وغاصت الى قاع البحر ومع انه كان مشتاقاً ان يتقدم في سيره الا انه حل هناك نحو ثلاثة اشهر وكتب ثانية تلك اليومية التي تحتوي على مئات من الصفحات واستغرقت من اكتوبر الى عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وكان عارفاً ان مستقبل تلك البلاد جميعها متوقف على معرفة الاراضي التي قد درسها الآن قبل كل رجل ابيض في العالم لأنه لم يطرقها قبله أحد منهم

وبينما كان لفنجستون راكباً ثوره سنباد من شواهق بنغو اندونغو بين نخيل وادي كاسانجي وصل الى بيت الكابتن نيفز وهو رجل برتوغالي ساكن في كاسانجي ذاتها ورأى لفنجستون في مدة

بقائه معه ولداً مصاباً بالحمى وقصد ان يعالجه اما امه الافريقية فكانت تعتقد بان ابنها مسحور فلم تصغِ لكلام لفنجستون عند ما وصف له الغذاء والدواء المناسبين وهكذا قد مات الولد

وكان رجل آخر في كاسانجي مريضاً وكان يقول ان اخت زوجته قد سحرته وعزم الطبيب الساحر ان يمتحنها بشرب السم حتى تبرهن على براءتها فمنعهم الكابتن نيفز لان السم كان شديداً ولا بد ان يقتلها واذا ماتت يقولون ان هذا برهان على انها كانت ساحرة. وفي بعض جهات وادي كاسانجي هذا حيث لا يستطيع الكابتن نيفز ان يمنعهم وجد لفنجستون ان مئات يموتون بواسطة الامتحان بشرب السم لانه عند ما يمرض احد يأتي اطباء السحر المشعوذون لابسين على رؤوسهم ريشاً بهيئة مخيفة وقروناً فيها السم ويرقصون وهم ينادون الشخص الذي سحر المريض على زعمهم ثم يذيبون السم ويسقونه للمتهم بانه سحر ذلك المريض وطبعاً يموت وعرف لفنجستون ان هؤلاء المشعوذين في كل اواسط افريقيا قد قتلوا اناساً في سنة بقدر ما قتلت النخاسة من اول الزمان ومن الامور المحزنة انهم لا يزالون هكذا الى هذا اليوم. ومن عادة

اولئك الاقوام انهم يخافون كثيراً من ارواح الموتى الشريرة الذين (كما يظنون) يؤذونهم اذى كبيراً

وبينما كان لفنجستون يتأمل في هذه الامور ذات يوم في كاسانجي تطلع فرأى رجلاً راكضاً لجهة البيت الذي هو فيه ومعه مكاتيب وجرائد وتلك الجرائد كانت مرسلة له من انكلترا ومعنونة باسمه ففتحها بلهفة وقرأ في جريدة التيمس عن حرب القرم التي كانت مشتعلة وقتئذ وذكرت قصة هجوم الفصيلة المسماة «لايت برايجاد» فشعر بحماس شديد عند قراءتها

ان لفنجستون لم يكن يحمل معه سيفاً أو رمحاً كالعساكر ولم يركب على فرس سريع بل على ثور بطيء الحركة ولكنه في الايام التي كان يقرأ فيها جريدة التيمس عن الجنود الابطال كان هو مثل فصيلة لايت برايجاد هاجماً في وادي الموت الا وهو وادي كاسانجي لينجي شعبه وشعب افريقيا برمتها من تجارة الرقيق المريعة ومن الاطباء المشعوذين السحرة ومن الاعتقاد بالعفاريت

ثم رحل الى الشرق قاصداً لنيانتي التي هي وطن رفاقه وكان مراراً ينزه نفسه بالمشي صباحاً على الاراضي المكسوّة بالاعشاب الخضراء ويرى المواشي ترعى والمعزى تأكل الكلاء وجداءها تثب

وتناطح بعضها في اللعب ورأى الاولاد يحرسون المعزى ويلعبون بالقسي والسهام والمزاريق ورأى النساء نازلات الى النهر وجرارهن الفخارية على رؤوسهن وسمع العصافير تغرد فوق اغصان الاشجار

وبينما هو يمتع طرفه بهذه المناظر على شاطئ نهر كوانجو ذات يوم اتى بعضهم واخبروه ان رئيساً في عبر النهر قد اتهم بانه سحر آخر وقد شرب سم الامتحان المميت وطرح جسمه في النهر فرأى لفنجستون انه امر يؤسف له للغاية كون اعمال القساوة هذه تجري في بلاد جميلة كهذه والسبب في ذلك هو اعتقاد اهلها بالاسحار والشياطين عوضاً عن ان يؤمنوا بالله ابيهم

واتى رئيس قرية ذات يوم الى محلة لفنجستون واخذ في الشجار فاغتاظ منه احد رجال لفنجستون وضربه على فمه وهذه هي المرة الوحيدة في طول اسفارهم التي فيها اغتاظ احد رجال لفنجستون وكان هو البادئ بالشر مع ان هذا الرجل كان اجبن كل الرجال الذين معه فمن ثم اعطوا الرئيس بندقية وخمس قطع من الثياب لينهي المسألة لكنه طلب زيادة اما لفنجستون فرفض ثم ارتحلوا لكن بينما كان لفنجستون راكباً ثوره ورجاله يتبعونه ودار في الطريق في وسط الغابة لم يدرِ الا وقد سمع صوت تكسير اغصان الاشجار

وصوت رجال راكضين وراءهم وكان ذلك ان رجال القرية قد اندفعوا يهزون حرابهم ويطلقون بنادقهم ويرمون الاحمال من فوق رؤوس حمالي لفنجستون املاً في ان يهربوا فيحملون النهب ويرجعون به

وكان لفنجستون وقتئذ مريضاً بالحمى لكنه نسي مرضه في ساعة الخطر فرجع ومشي نحو العدو وتناول مسدسه (الذي لم يقتل به احداً قط) وتهدد الرئيس به فوجه لفنجستون الشجاع والجريء ولمعان المسدس المصوب نحوه قد روعاه حتى تلجلج وقال — انا اتيت فقط لا كلمك انا لا ارغب شيئاً سوى السلام ففحصوا بندقية الرئيس ووجدوها انها قد اطلقت عليهم في ذلك الوقت فقال لفنجستون ونحن ايضاً نرغب في السلام فان كنت ترغب انت في السلام فارجع اذاً الى قريتك والى بيتك . فاجابه الرئيس انا اخاف لئلا تضربوني عند ما احول ظهري فاجابه لفنجستون ان كنت خائف مني فلست خائفاً منك ثم ادار قفاه للرئيس ورجع بكل هدوء وركب ثوره

ففرح رجال لفنجستون للغاية من هذه النتيجة حتى انهم صاحوا مع بعضهم كالاطفال وقالوا لو لم يفض لفنجسون المسألة لكنا عملنا اعمالا عجيبة

ولم يمضوا قليلاً الا والتقوا برجل رابطاً ثمان نساء افريقيات جميلات المنظر بسلسلة قاصداً بيعهن ويقبض ثمنهن سن الفيل وعرف منهن لفنجستون ان فتاة صغيرة كانت مريضة وطويلة ونحيفة قد ارتدت عن جماعة الاسرى وضلت في الغابة فبحث عنها لفنجستون ورفاقه طول اليوم ولكنهم لم يجدوها فلا بد ان تكون قد نامت في الغابة وعند ما تستيقظ تمشي حتى تسقط خائرة. فقال رفاق لفنجستون الماكولولو بغضب واصفين تجار الرقيق — «ان ليس لهم قلوب»

ومروا عابرين الانهار التي تجري الى جهة الشمال في بلاد الكونغو وساروا في غابات متسعة مملوءة من النباتات المعرشة وكانت تلك النباتات هكذا غزيرة حتى لا يمكن السير فيها ما لم يتقدمهم واحد بفأس ليهيئ لهم الطريق وكانت الطريق الضيقة متعرجة في الغابة حول جذوع الاشجار الكبيرة التي كانت تخيم فوقهم بظلمة خضراء كأنهم سائرون في قاع بحر عميق. ولم يوجد حيوانات كبيرة في الغابة ولا غزلان ترعى بجانب الجواميس السوداء بل لم يوجد فيها سوى الجرذ والحيات فرغب لفنجستون ان يرجع الى شواطئ نهر زمبيزي حيث تكثر الحيوانات ولما وصلوا الى

مقاطعة كبرى من بلاد الكونغو على بعد عشرة اميال من شواطئ نهر كاساي انى الرئيس كاواوا وطلب منهم اما ان يعطوه ثوراً أو بندقية أو بارود أو ثوباً أو رجلاً كعبد وقال ان لم تعطوني فامنعكم عن عبور النهر . فاجابه لفنجسون الذي لا يحب أن يهدد وقال اني ارفض طلبك . فمن ثم اندفع اتباع كاواوا ليتناولوا قسيهم وسهامهم ومزاريقهم ليقتلوا بهـا لفنجستون ورجاله اما رجال لفنجستون فارادوا ان يقاتلوهم اما هو فأمرهم ان يأخذوا امتعتهم ويسيروا فاطاعوا كلامه ومن ثم تفرق رجال كاواوا في الغابة يتطلعون بعيونهم اليهم ولكن لا يضربون وراءهم

ولما وصلوا الى نهر كاساي وجدوا ان اربعة من رجال كاواوا قد سبقوهم وامروا (المعداوي) ان لا يعديهم فابعدت زوارق العبور (المعدية) وكان النهر عميقاً وعرضه مائة ياردة . فافتكر لفنجستون ان يعدوا النهر عائمين بعد ما يمضي رجال كاواوا ولما اقبل الظلام مشى احد رجال لفنجستون المدعو بتساني على الشاطئ الى ان وجد المكان المخفى فيه المعدية فاحضرها وعدى قومه بها وارجع الزورق الى مخبإه وفيه بعض الخرز حلواناً لهم ثم رجع عائماً الى لفنجستون وعندئذ صلوا جميعهم وناموا ولكنهم صرفوا مدة وهم يضحكون

على جماعة كاواوا عند ما يصبحون ويرون المسألة وماتم فيها

وحصل فعلاً فانه في الصباح عند ما رأى جماعة كاواوا لفنجستون ورفاقه سائرين في البر الثاني من النهر صاحوا قائلين — آه يا ارديا . فأجابهم بتساني وآخرون بصوت عالٍ قائلين — ولكنا نشكركم يا اجواد لانكم اعرتمونا زورقكم فعدينا فيه !

وبعد ما ساروا اميالاً طويلة في الغابة المظلمة سروا سروراً جماً عندما خرجوا منها ورأوا مياه بحيرة ديلولو واموا جها الجميلة تتنفس على شواطها وبعد ما ودعوا رئيس قبيلة ديلولو ساروا الى الامام وفرحوا بوجودهم بين اصدقائهم قبائل نهر زمبيزي مرة ثانية

وكان لفنجستون يصيد حمار وحش في ذلك المكان ليتغدوا به فأصاب حماراً في رجله الخلفية لكنه ركض فقام رجاله وراءه ولما رفع لفنجستون عينيه رأى جاموسة مطاطئة رأسها وراكضة نحوه بسرعة غريبة وصوت حوافرها مثل الرعد فالتفت حوله لعله يجد شجرة ليختبئ وراءها فلم يجد شجرة قريبة منه ومن ثم رفع زناد بندقيته وصوب عليها — ولكنه قال في نفسه — ماذا يتم يالفنجستون لو كانت بندقيتك تخطي المرمى ؟ وبما ان الجاموسة كانت مندفعة بسرعة تامة وانحرفت قليلاً لوجود شجرة صغيرة في طريقها

تعرّض كتفها امامه فأطلق لفنجستون بندقية عليها وسقط على وجهه عند ما سمع قرقعة الرصاصة في كتف الجاموسة فدارت مرة ثانية وابعدت عن لفنجستون وسقطت ميتة في الماء اما رجاله فاغتاظوا على انفسهم في ما بعد لانهم جروا وتركوه بلا معين وقت الخطر

وعندما وصلوا الى اول قرية من بلاد سيكيليتو المدعوة ليبونتا خرجت نساؤها جميعهنّ مزغردات ومهللات بأصوات الفرح وراقصات ومطوحات بعصيهنّ مترحبات بقدومهم وكان قد تنبأ عرافو القبيلة منذ مدة طويلة ان لفنجستون ورجاله لا شك هالكون اما الآن فقد رجعوا بالسلامة وكل واحد من الثمانية والعشرين وصل سالماً رغماً عما انتابهم من المخاطر المتنوعة والحميات

وقدم اهل ليبونتا للفنجستون ورجاله ثيراناً ولبنا وزبدة وخبزاً وتجمع الغرباء من مسافة بعيدة فأقام لفنجستون خدمة شكر لبس فيها رجاله بدلهم البيضاء الجديدة وطرابيشهم الحمراء التي اهديت اليهم في لواندا وجربوا ان يمشوا بصلابة مثل العساكر الذين رأوهم في لواندا ويسمون انفسهم (ابطال لفنجستون) وسروا لانهم صاروا موضوع اعجاب جميع النساء والاولاد

وحدث في اثناء سيرهم في نهر زمبيزي بجوار تابيلى نحو التشوب ولنيانتي ان فرس بحر اضاعت مولودها في اليوم الماضي اندفعت على الزورق ونطحته بمقدم رأسها وكان فيه ثمانية من الرجال بما فيهم لفنجستون فرفعته عن الماء نصف رفعة طرحت ماشوانا في النهر لكنها لم تتعقبهم . واخيراً وصلوا الى لنيانتي موطن الماكولولو منتصرين وكان لفنجستون منشرح الخاطر من رؤية رجاله يسيرون في القرية بافتخار مرتدين ثيابهم الزرقاء والحمراء التي اتوا بها من لواندا وكان يسمع اعجابهم قائلين — اننا سافرنا حتى انهينا كل العالم ولم نرجع الا لعدم وجود ارض بعد

الفصل التاسع

الرخامة الصائتة

ان لفنجستون قد اكتشف طريقاً من قلب افريقيا الى الاوقيانوس الاطلانطيقي غرباً وقد رجع برجاله لكنها كانت طريق وعرة محفوفة بالمخاطر وانواع الحميات وظن انه قد يمكن وجود طريق افضل من هذه مجاورة لنهر زمبيزي الى الساحل الشرقي

وكان الرئيس سيكيليتو مفتخراً لانه ساعد لفنجستون فأحبه الآن اكثر من ذي قبل فأعطاه مائة وعشرين رجلاً من رجاله ليسافروا معه بجوار نهر زمبيزي وثلاثة عشر ثوراً لاجل الركوب والأكل ثم بدأوا رحلتهم الطويلة مرة اخرى متجهين الى الشرق ووصلوا بعد قليل الى بقعة في غابة يكثر فيها نوع الذباب المسمى تسته القاتل للخيل والثيران فتقدم الرجال وسبقوا ليعملوا خياماً للمبيت اما لفنجستون واصاغر الرجال فانتظروا حتى يأخذوا الحيوانات معهم ليلا عند ما ينام الذباب فارتحلوا في الليل بين الاشجار في الظلمة الحالكة ورأوا وميض برق يبرق عليهم دفعة بعد الاخرى

وانتشر البرق في طول الجو بعشرة شعب بينما البرق العريض الذي كشف لهم كل البلد قد اعقبته ظلمة كثيفة وقصف رعد يصم الآذان جعل الخيل ترتجف وكان يضحك الشباب لانهم كانوا يتخبطون على بعضهم البعض في العتمة

وقد انهمل المطر الغزير وبرد الليل بعد حر النهار وكل فراشهم والخيمة ايضاً قد سبقتهم الى المحلة ولم يستطيعوا ان يصلوا الى المحلة في وسط الزوبعة فمن ثم مالوا نحو نار موقدة مهجورة ممن اوقدها وهناك نام لفنجستون بثيابه مبتلة على الارض الباردة وحاول النوم فشعر بواحد يلمسه واذ رفع عينيه رأى سيكيليتو قائلاً خذ حرامي يا ابي فاذا اخذته يدفئك . فأجيب طلبه ولف لفنجستون بحرامه وذهب لينام هو بدون غطاء على الارض الرطبة الباردة . ثم سافروا في نهر تشوب حتى وصلوا الى نهر زمبيزي الكبير وبعض منهم ذهبوا في الزوارق والبقية ركبوا الثيران فوق الشواطئ ورأى لفنجستون ذات يوم واذا بخمسة اعمدة عجيبة من البخار قائمة في الهواء على بعد اميال وسمع صوت العجيج في الهواء من مسافة بعيدة . فقال الماكولولو انه دخان صائت وكان تيار النهر يسير بكل سرعة فقاد الافريقيون الزورق ببطء وبكل احتراس

وابعدوه عن المياه المندفعة الى المياه الهادئة في وسط النهر وراء جزيرة فرسى لفنجستون وزحف على حافة الجزيرة وتطلع واذا بالنهر العظيم الذي يبلغ عرضه اكثر من ميل يندفق على جرف هوة عميقة يبلغ عمقها ثلثمائة قدم بعجيج المياه الكثيرة فكانت تسقط المياه في هوة ضيقة ومتعرجة وفي سيرها تفور وتغلي مندفعة بين شقوق الصخور الشاهقة بحيث ان رشاشها كان يرتفع في خمسة اعمدة كبيرة تخفي قرص الشمس عن النظر وكان يظهر في ذلك الرشاش قوس قزح مزدوجاً كثير الالوان اشبه بقنطرة جميلة هادئة فوق الماء الهائج

وكان ذلك اليوم من ايام نوفمبر سنة ١٨٥٥ ولفنجستون كان اول رجل ابيض قد رأى الدخان الصائت الذي هو ضعف شلالات نياجرا في كندا في الحجم وسماه شلالات فكتوريا وهناك نقش اسمه في جذع شجرة في الجزيرة بسكينه ولا يظهر ذلك النقش اليوم الا ضعيفاً جداً

ثم ترك نهر زمبيزي وسكانه السود ومشى الى جهة الشمال الشرقي الى الاراضي العالية ولون اهلها مثل لون القهوة باللبن ورأى

ان تلك الاراضي العالية صحية افضل من الاولى وتعشم ان تكون مركزاً للمرسلين ليشتغلوا فيها وقد تم رجاؤه الآن

ورأى آكاماً طويلة مثل الامواج منتشرة في كل البلاد وارضها حمراء رملية وبها اشجار قليلة ولا يوجد في سهولها نوع الجاموس والافيال فقط بل يوجد ايضاً الازيل (نوع من الايل) ذات الشعر الكثيف والقرون المفتولة وهناك تزأر الاسود ليلاً في نور القمر وكان احدها واقفاً تجاه وجه لفنجستون مرة على صخرة صوانية وبقي مدة طويلة يزأر باستمرار

وذات يوم عند ما اصطاد ببندقيته جاموسة ليقتاتوا بها اندفع عليهم كل القطيع والتجأ لفنجستون ورجاله فوق تلة نمل كبيرة يبلغ علوها عشرين قدماً الى ان مر قطيع الجاموس الهائل وصوت حوافره كالرعد وكانت تقوده جاموسة عجوز بثلاثين عصفوراً على ظهرها وهذه العصافير المسماة عصافير الجاموس من عادتها ان تحلق في الهواء عند اقتراب الخطر. وشرع القوم ان يسيروا نازلين في منحدر تدريجي يؤدي بهم الى الساحل الشرقي ووصلوا الى اماكن اخطارها جديدة لانهم جاءوا الى آخر حدود اراضي الماكولولو حيث تسكن قبائل البطلية العاصين على سيكيايتو

وحدث ان بعض اولئك المتوحشين اتوا في العشية وحاولوا ان يطعنوا احد الماكولولو برمح لانه كان قد ذهب ليستقي ماء واندفع احدهم على لفنجستون بعينين براقتين وشفتين ترغيان زبداً وصرخ بصوت مرعب في وجهه وهزّ عليه فأسه اما لفنجستون فلم يبدُ عليه أقل خوف بل حملق بعينيه الزرقاوين في وجه الرجل وعزم رجاله ان يصرعوا ذلك المتوحش الهائج على رأسه لكن لفنجستون نهاهم عن ذلك فرضخوا لأمره اما احد الماكولولو المدعو سكويبو فتناول رمحه واستعد ان يقتل الرجل اذا ضرب لفنجستون اما لفنجستون فبكل سكينة طلب من احد البطلية ان يبعد ذلك الرجل المجنون فاطاعه واخذه بعيداً

ثم ساروا من هناك ووصلوا الى وادٍ جميل ولان رجاله كانوا في حاجة الى الطعام اطلق رصاصه على جاموسة فجرحت ولم تمت فدارت الجاموسة هائجة منقضة عليهم فركضوا ولجأوا الى صخرة ولكن اثناء هروبهم وجدوا انفسهم امام ثلاثة افيال ولحسن حظهم حادت الافيال عن طريقهم وفي اثناء اختبائهم في الصخرة جرت الجاموسة المصابة ومضت فاطلق لفنجستون رصاصه على احد الافيال فقتله فاكلوا منه هم وأهل القرية المجاورة

'Livingstone was the first White Man who ever saw "Sounding Smoke."
He named it Victoria Falls.'

شلالات فكتوريا

وصعد لفنجستون فوق الصخور في اليوم التالي با لاته معه ليكشف الطريق التي يجب ان يتخذها في سفره ولما تطلع في منظاره رأى عن بعد ميلين فيلة وخنوصها وكان الخنوص يمرغ في الطين وامه تروح بآذانها الكبيرة فاحتاط جماعة من رجال لفنجستون بتلك الفيلة وخنوصها بينما كانا هادئين وغير شاعرين بوجود خطر فاقترب الرجال اليهما ورماحهم في ايديهم فشعرا بالخطر وجرى الخنوص بعيداً اما الرجال فارجعوه وهم يصيحون وينشدون قائلين ايها الرئيس الحلو اننا اتينا لكي نقتلك فتوسطت امه بينهم وبين خنوصها وهربت في وسط الجدول فاقترب الرجال اليها واعملوا بحرابهم فيها وارسل لهم لفنجستون امراً بان لا يقتلوا الخنوص انما قبل وصول سكويبو الرسول الى الجدول كانوا قد قضوا عليه فاندفعت عليهم الفيلة مراراً ولكن كل مرة كانوا يختبئون وراء الاشجار واخيراً بعدما جرحت بحراب متعددة سقطت على ركبتيها وماتت وتألم لفنجستون كثيراً لما رأى ان الفيلة الاصيلة ماتت وياليتهم اماتوها لاجل الطعام لانه كان لديهم طعام بكثرة انما اماتوها لكي يفرح المتوحشون بالصيد لا غير

ثم وصلوا الى نهر كافوى حيث رأوا عسنتاً عائمة في النهر

واولادها الصغار بحجم الكلاب البرية راكبة على رقبتها وكانت رؤوسها صغيرة ومتزاحمة بين اذني امها. واثناء سير لفنجستون ورجاله واقترابهم الى نهر زمبيزي رأوا ان الجواميس والافيال والحمر الوحشية والخنزير البري اليفة بهذا المقدار حتى انها تهرب متى صاحوا في وجوهها ولكن مرة عند ما صاحوا في وجه فيلة وخنانيصها الثلاثة هجمت عليهم فالتزموا ان يرموا احمالهم ويفروا هاربين

وعند وصول لفنجستون الى المكان حيث يصب نهر لوانجوا في نهر زمبيزي صادف مأساة خطرة وتحرير الخبر هو انه كان قد حصل من مدة ان رجالاً مجنسين من برتغاليين وافريقيين سبقوا واساءوا الى رئيس تلك البلاد فظن الرئيس ان لفنجستون من جنس اولئك فتهدد لفنجستون اما هو فكشف عن صدره الابيض الذي لم يكن قد تلوح بالشمس وأراه للرئيس قائلاً — هل جلد البازكا مثل جلدي هذا؟ فاجابه الرئيس كلا. على ان لفنجستون قد لاحظ انه لا يبعد ان يصدر ذلك الرئيس المرتاب اوامره بدق رأسه ورؤوس رجاله في اليوم التالي عند عبورهم النهر

فصار لفنجستون يسأل نفسه — هل الافضل يا ترى ان نعبر النهر ليلاً في الخفاء وننجو؟ فانه لم يخف على نفسه بل ما يؤسف

له ان جميع الاكتشافات التي اكتشفها لفتح البلاد تذهب سدى ولذلك فتح علبة من الصفيح واخرج منها الكتاب المقدس وقرأ على نور ضعيف مرتج قوله له المجد «فاذهبوا وتلمذوا جميع الامم... وها انا معكم كل الايام» ثم قال لنفسه هذا امر اقدس واشرف شخص عاش على وجه البسيطة فلا اعبر خلسة بالليل كما افتكرت لان ذلك يبان انه هروب وهل مثلي يهرب؟ كلا بل في هذه الليلة ينبغي ان اقيس خطوط العرض والطول كالعادة ولو تكون المرة الاخيرة

وحصل ان الوطنيين المهددين قد اتوا في الصباح التالي والجميع مسلحون بحرابهم واحتاطوا بلفنجستون ورجاله بينما كانوا ذاهبين الى شطوط النهر ليعبروا في الزورق الوحيد الذي كان قد اعير لهم وظهر كأنهم يريدون ان يسمحوا لبعضهم ان يعدوا النهر فيذبحون البقية فانزل الماكولولو اولاً احمالهم في الزورق الكبير ثم انزلوا الثيران ثم اعقبهم الرجال اما لفنجستون فبقي الى الآخر لكن بينما كان الزورق يعدي ذهاباً واياباً اخرج ساعته من جيبه وعدسته البلورية البديعة الشكل وصار يري اولئك المتوحشين كيف يحرق بعدسته بواسطة تجمع اشعة الشمس في العدسة وجعلهم يتسمعون

تكتكة ساعته في آذانهم ووضح لهم كيفية تبيانها للوقت فاحتاطوا واستمعوا له وسألوه بعض اسئلة وبعد ما عدّى كل رفاقه شكر لفنجستون اولئك المتوحشين المسلحين لاجل الزورق الذي اعاروه له وقال لهم لفنجستون مع السلامة ونزل في الزورق وعدى به النهر ولم يرفع احد رمحه عليه . اما اغلب الاهالي في تلك القرى التي مر عليها في هذه الرحلة فقد كانوا يعاملونهم بالرأفة ويقدمون لهم طعاماً ومتى عرفنا ان جماعة لفنجستون كانوا مائة واربعة عشر رجلاً نفهم ان تلك الاقوام كانوا كرماء للغاية وقال سكويبو رئيس جماعة لفنجستون : ألم اقل لكم ان اهل هذه البلاد ذو قلوب طيبة ؟ فأجابه بعض رفاقه — حقاً ما تقول وانظر اننا مع ابتعادنا كثيراً عن اوطاننا لم ينحف منا ولا واحد

ولما اقتربوا الى المستعمرات البرتغالية على الساحل الشرقي وجدوا الآثار المظلمة التي سببتها تجارة الرقيق فان عقول اولئك القوم كانت متسممة ضدهم لانهم كانوا قد سبقوا ورأوا اناساً ذوي شعور ناعمه ووجوه سمراء مثل لفنجستون ينهبون اولادهم ويبيعونهم عبيداً ولما علم لفنجستون بنشوب الحرب بين البرتغاليين ووطني تلك البلاد على الشاطئ الشمالي من نهر زمبيزي اراد ان يعبر الى

الشاطئ الجنوبي منه فوصل الى قرية الرئيس مبندى الذي لم يرسل له رسولا دلالة على انه عدو لهم ولكن عند طلوع الشمس اقبل جماعة مبندى مطوحين خِرَقاً حمراء وصائحين بصرخات مزعجة واتوا الى محلة لفنجستون واشعلوا ناراً ورموا فيها تعاويذ سحرية معتقدين بان هذه التعاويذ لا بد ان تؤذي لفنجستون وقومه ثم بعد ذلك رجعوا الى قريتهم

ثم تجمع رجال مسلحون من كل ناحية واتوا الى محلة لفنجستون وكان رجاله متأهبين للقتال ولم يكن لهم رغبة الا في طعن حرابهم في جسم مبندى وقال بعض الشباب المتحمسين منهم للفنجستون وهم يهزون رماحهم صوب القرية — انك قد رأيت ما نستطيع ان نعمله في الافيال فقط ولكنك لم ترَ ما نستطيع ان نعمله في الرجال اما لفنجستون فكعادته نهاهم بشدة عن ان يضربوا احداً البتة الا في المحاماة عن انفسهم. اما مبندى فأرسل جواسيس لمراقبتهم فأعطى لفنجستون لاثنين من الجواسيس فخذ ثور قائلاً خذا هذا الى مبندى وقولا له اني راغب في السلام

وبعد ذلك بقليل حضر رجلان اشيبان وفي وجهيهما غضون من عند مبندى وتفرسا في وجه لفنجستون وسألاه قائلين — من

انت ؟ فأجابهما اني رجل انجليزي . فقالا اننا لا نعرف هذه القبيلة لقد ظننا انك برتغالي اي من القبيلة التي نحاربها الآن

فأراهما لفنجستون جلد صدره الناصع البياض وقال لهما هل لاولئك جلد كهذا؟ فأجاباه كلا اننا لم نر قط جلداً ناصع البياض كهذا وبعد ان توقفا هنيهة قالا — آه انك لا بد ان تكون من تلك القبيلة التي لها قلب يحب السود . فأجابهما لفنجستون — حقاً ما تقولان ان هذه القبيلة التي لها قلب يحب السود لهي قبيلتي وسر لما رأى انه حتى في قلب افريقيا قد سمع الاهالي بان جنس الانجلوسكسون البيض لهم قلب يحبهم

من ثم ذهب سكويبو رئيس جماعة لفنجستون الى مبندى واقنعه بان غرضهم ليس لكي يحاربوه بل لان يصيروا اصدقاء معه فقال له ان الرجل الابيض ينبغي ان يعدّي الى عبر النهر لان هذا الشاطئ وعر وكله تلال وفوق ذلك فان الطريق الى تتى من عبر النهر هي اقرب من هنا

فسأله سكويبو — لكن من ذا الذي يعدّينا ؟

فأجابه مبندى انتم تعدون — ويعني بذلك انهم الآن صاروا

اصدقاء معهم ولاخوف عليهم وانهم مستعدون ان يعيروهم الزوارق ليعدوا فيها

فمن ثم عبروا جميعاً الى الشاطئ الجنوبى من نهر زمبيزي في زوارق كبيرة وتركوا قبيلة مبندى برمتها التي قد هددتهم عند وصولهم وهي مملوءة من الصداقة والمعروف . وهذا ما كان يجتهد لفنجستون ان يعمله دائماً

وبعد ذلك اعتبر لفنجستون بين رجاله بانه بطلهم العظيم اكثر مما كان يعتبر قبلاً . لانهم رأوا مقدار ما له من المقدرة في اكتساب الناس الى جانبه وقد سمعوا من الاحرار والعبيد الذين لاقوهم ان البيض الذين من قبيلة لفنجستون كانوا عائشين بين الافريقيين كاخوة وليسوا كنخاسين

وفي ذات يوم وهم سائرون فوق نهر زمبيزي لاقوا تجاراً وطنيين حاملين حزم (صرر) شيت فقدم لهم لفنجستون سني فيل صغيرين ليشتري بهما ملابس لرجاله لان كثيرين منهم قد صاروا عراة ورأى ان ذلك الشيت كان مجلوباً من اميركا لانه كان مبصوماً بماركة لورنس ملز لاول Lawrence Mills Lowell وعندئذ قد اصطاد رجاله فيلاً وذبحوه ليأكلوه فكان كثيراً عليهم أن يأكلوه

كله ولا يمكن ان يحفظ بدون تعفن بسبب الحر الشديد فتجمع الضبع حولهم وصارت تضحك بصوت عال مدة ليلتين كاملتين فسأل لفنجستون رجاله قائلاً — مم يضحك الضبع ؟ فأجابوه — انها تضحك لاننا لا نقدر ان نأكل الفيل بأكمله ولذا نضطر ان نترك لها منه جانباً كبيراً

وفي سفرهم كان يراقب لفنجسون بكل دقة جميع الحيوانات الموجودة في تلك البلاد ورأى ان جميعها من الفيل والكركدن الى اصغر الحشرات كانت ملتذة في شغلها مثلاً — رأى وهو واقف بجانب ذلك الفيل المذبوح هواماً صغيرة جداً لحبة الرمل تجري على علبة الصفيح التي له فتناول نظارته المكبرة ورأى حشرة منها فاذا هي خضراء واجنحتها ذهبية لامعة واخرى فاذا هي شفافة كقطعة بلور واخرى حمراء لامعة واخرى بلون اسود فاحم وكان يتسمع لطنين الهوام وتغريد الطيور اثناء سيره في الغابة وكان يقول عنها ان اصواتها مثل العصافير الانجليزية مغردة بلغة اجنبية . وبعض منها اشبه بالقنبرة ونوعان منها اشبه بالسمّن وغيرها ذكرته بالشرشور وابو الحنّ والشحرور تلك العصافير الجميلة التي كان يراها في بلاده . وسمع عصفوراً رنين تغريده اشبه بصوت الكمنجة

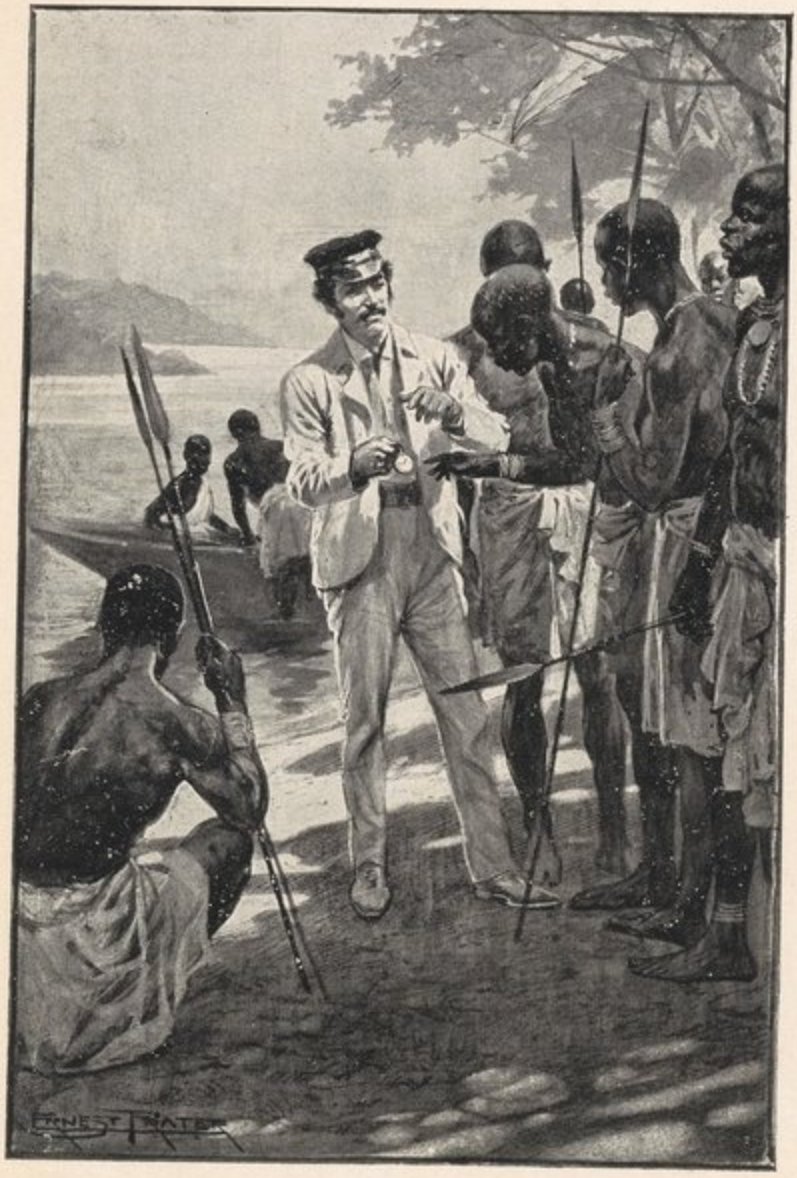

'He let them listen to the Ticking of his Watch.'

يتعجب الافريقيون من دقات الساعة

وآخر يقول بكل بطء پيك پاك پوك وسمع اليمامة بصوتها الجميل المعروف والوقوق (الكركم) الذي يرشد الانسان الى خلايا النحل البري سمعه يزقزق (تشكن تشك تشر تشر) ولما كانوا قريبين للقرى كانوا يضحكون كثيراً من سماع صوت العصفور السخري عندما يقلد اصوات الديوك والدجاج بتقليده المتهتك

ولما حان اليوم الثاني من شهر مارس سنة ١٨٥٦ لم يستطع لفنجستون ان يتقدم اكثر نظراً لما حل به من التعب لطول شقة السفر وقلة الغذاء فحل ليستريح على شاطئ نهر زمبيزي على بعد ثمانية اميال من تتى حيث يسكن قومندان برتغالي ومن هناك ارسل رسائل للقومندان وعند الساعة الثانية بعد نصف الليل ذعر الماكولولو لانهم رأوا فرقة عساكر وضابطين مقبلين اليهم فاسرعوا وايقظوا لفنجستون وصرخوا له قائلين — لقد أسرنا — لكن العساكر كانوا آتين بفطور لذيذ جداً قال عنه لفنجستون انه ألذ طعام اكله طول حياته وبعده قام ومشى بكل حماس الثمانية الاميال الباقية الى تتى وبعد ان ارتاح مدة سافر في زورق الى كويليمان الميناء التي كان ينوي السفر منها الى بريطانيا التي لم يرها

منذ نيف وثلاث عشرة سنة بل لم ينطق بكلمة انجليزية مدة ثلاث سنوات ونصفاً

وقد حان الوقت لان يبحر ويترك رجاله الماكولولو فوضع اغلبهم في تتى ليشتغلوا في الزراعة وذهب بعض منهم الى كويليمان وكانوا يقولون انهم ذاهبون معه الى بريطانيا لكي يروا ام روبرت والاولاد اما لفنجستون فاخبرهم ان ينتظروا في افريقيا لحين رجوعه لانه ليس له دراهم كافية حتى يدفع اجرة سفرهم الى انكلترا وقال لهم لا شيء يمنع رجوعي سوى الموت. فأجابوه يا ابانا انك لا تموت بل ترجع لتردنا الى سيكيليتو. وبقي معه رجل واحد الى النهاية ملحاً عليه ان يأخذه معه على ظهر المركب فقال له لفنجستون انك تموت يا صاح لا تحتمل برد بلادي

فأجاب الافريقي لا بأس بذلك دعني اموت تحت قدميك

الفصل العاشر

مواجهة السهام السامة

قد وصل لفنجستون الى وطنه وصرف عيد الميلاد بكل سرور مع بنيه الثلاثة وابنته اجنس وذلك في سنة ١٨٥٦ وقد لعب معهم بعض الالعاب التي لم يروها في حياتهم لانهم لما كانوا صغاراً جداً في افريقيا لم يكن له فرصة ليلعب مع اولاده وعند ما اقبل الربيع ورأى الزهور تزهر والعصافير تغرد امتلا حمية وتنبهت عواطفه لانه لم يرها منذ زمن طويل

وقال بكل سرور اننا قد رأينا زهر الاقحوان وزهرة الربيع والزعرور البري وابو الحن ذلك العصفور ذا الصدر الاحمر وتذكر الفرق العظيم بين الاسود والفيلة وبين ابو الحن والطيور الانجليزية وكان يأخذ اولاده احياناً ليتنزه معهم في الصيف في غابات هادلي بجوار لندن وكان يجري منهم بغتة ويختبئ بين نبات السرخس او الشجيرات الصغيرة فتجري الاولاد لكل ناحية باحثين عنه مثل (الهنود الحمر) ثم يخرج بغتة ويفاجئهم من حيث لا يدرون

اما ام روبرت فلم تعرف ماذا تفعل من الفرح برؤيته بعد هذه

السنين الطويلة ولما عرفت بقدومه وهو في الطريق الى انكلترا كتبت شعراً صغيراً لتعبر به عن حاسياتها وقرأته عند وصوله اليها وهـذا دور واحد منه — مائة الف مرحباً بك يا عزيزي فان قلبي يتدفق بالحب والفرح

وانني لأعجب برؤية وجهك مرة ثانية

فكيف قد عشت بدونك هذه السنين الطوال سني الحزن والألم

ويخال لي ان انفصالي عنك بعد الآن يقضي على حياتي

ثم مضى ليرى امه اما والده الذي ودعه في ميناء جلاسكو منذ ست عشرة سنة فقد وافاه القدر المحتوم قبل وصوله بزمن قصير وذلك الرحالة التي طالما قابل اسوداً وواجه حراب المتوحشين برباطة جأش وكل بسالة انفجر بالبكاء عند ما تطلع الى المقعد الفارغ الذي كان يجلس عليه والده لانه كان يتمنى الوقت الذي فيه يقص لوالده عن المخاطرات التي اقتحمها

ومع وجوده في انكلترا لم يمكنهم ان يحجزوه معهم طول المدة لانه صار الآن من اعم مشاهير الرجال في البلاد وملتزماً ان يذهب الى الجمعيات العلمية والمجتمعات الكبرى والجامعات العظمى ليلقي

خطابات عن سفراته مع شدة كرهه للخطابة وليأخذ أوسمة الشرف وألزموه ان يكتب كتاباً عن كل رحلاته ومخاطراته فكتب الكتاب «المسمى سفرات المرسل» Missionary travels

وذهب يوماً ما لكي يرى بني الملكة فكتوريا وبناتها وبينهم اكبرهم الذي صار في ما بعد الملك ادورد السابع واحبوا ان يسمعوا عن المخاطرات التي خاطرها ذلك الرحالة البطل ذو الوجه الاسمر وذهب في يوم آخر ليقابل جلالة الملكة فكتوريا التي ضحكت كثيراً عند ما قال لها ان اول سؤال سيسألونني عنه الافريقيون عند ما يخبرهم انه قابل جلالة الملكة هو — كم بقرة عندها؟ وقال نظراً لان الافريقيين ليس لديهم نقود فيحسبون الثروة بعدد المواشي وسن الفيل

وذهب مرة الى جلاسكو ليعطوه لقب دكتور في القانون بسبب اكتشافاته المهمة وكانت العادة في مثل هذه الظروف ان يدخل تلامذة المدرسة مسلحين بآلة صيد وبيدهم ابواق وطبول ويستعدون جميعاً ان يرقصوا ويصيحوا ويلعبوا في قاعة المدرسة فدخل لفنجستون بخطى ثابتة قوية وجهه محترقاً من شمس افريقيا وعلى جبينه خطوط هي سمات الآلام التي قاساها بسبب الحميات

المرار الكثيرة وذراعه اليسرى معلقة بجانبه بدون حركة فعندئذ تذكر التلامذة عضة الاسد والمخاطر التي تعد بالالوف التي قاساها ذلك الرجل المحترق وجهه بالشمس فلم يضربوا طبولهم ولم ينفخوا في ابواقهم ولم يرقصوا بل صمتوا واصغوا بكل سكوت الى هذا الرجل الذي شعروا بانه اعظم بطل قد رأوه في حياتهم

فقص عليهم بعض اخطاره ومجازفاته ثم قال لهم هل تعرفون ما الذي عضدني في وسط المتاعب وفي وسط الصعوبات التي قاسيتها في منفاي وحيداً ؟ انه ليس سوى الوعد الذي وعد به ربي قائلاً «وها انا معكم كل الايام الى انقضاء الدهر»

وكان يعظم سروره عند ما يوجد بين اصدقائه ويفضل ذلك عن الخطابة في المجتمعات الكبيرة وكان يحب الصبيان على نوع خاص وذهب مرة لبزور صبياً مريضاً في فراشه فقص عليه قصة مخاطرته مع الاسد التي ذكرناها في ما مر ثم خلع معطفه ورفع اكمام قميصه وأراه آثار اسنان الاسد في ذراعه

والآن التلميذ الصغير الذي لم يدرس الجغرافية الا بضعة اسابيع يقدر ان يتعلم عن بحيرات افريقيا وانهارها وجبالها اكثر مما كان يعرف اعظم رجل قبل رجوع لفنجستون الى بريطانيا

فكانوا يقولون قبلاً ان افريقيا هي برية كبيرة قاحلة ولكن أراهم لفنجستون انها مملوءة من البحيرات والانهار العظيمة وكانوا يقولون قبلاً ان جميع الافريقيين قساة متوحشون كثيرو الغارات والحروب اما لفنجستون فأراهم ان الاهالي الافريقيين متى عوملوا بالشفقة صاروا اصدقاء اوفياء مثل الماكولولو رفاقه

وبعد ذلك اراد لفنجستون ان يعرف اكثر عن تلك القارة وعزم ان يكتشف مكاناً صحياً في اواسط افريقيا يصلح لان يسكن فيه الاوربيون ويربوا معلمين ومبشرين افريقيين ولكي يصير حراً حتى يتوجه الى اي مكان يظنه انه افضل من غيره ترك مركزه في جمعية لندن المرسلية وقلدته الحكومة بوظيفة قنصل بريطاني

ففي اوائل ربيع سنة ١٨٥٨ قامت مركب من مراكب الحكومة تدعى بيرل من ميناء ليفربول وعليها لفنجستون وام روبرت واصغر اولادهم اوصول مودعين من اصدقاء كثيرين وعندما وصلت المركب الى مدينة الراس تقابلوا مع جدهم موت فكتت السيدة لفنجستون مع ابيها وامها اما لفنجستون فابحر شمالاً على الشاطئ الشرقي حيث يجري افواه نهر زمبيزي العديدة في وسط اجمات وغياض حتى تصل الى البحر

وقد اخرج من جوف السفينة بيرل الواح صلب عجيبة وآلات ومدخنة وعند ما ربطت بعضها ببعض بالبراغي (مسامير القلاووز) صار منها رفاص بخاري صغير وقد دعي ام روبرت على اسم مسز لفنجستون ثم سافرت الباخرة «بيرل» والرفاص «ام روبرت» في الكونغون (وهو اعمق فم من افواه نهر زمبيزي) وكان هناك نخيل لولبية كبيرة فوق الشاطئ منتصبة كانها أبراج كنيسة عالية وزهر الباميا الاصفر يتلألأ على طول الشاطئ ونخيل الباح البري والخنشار الشاهق تحركت خراعيبها عند مرور الباخرتين وديوك البحر كانت تتزرق كانها خطوط من نور وتحط على جذمور شجرة لتلاحظهما وهما سائرتان والصقر صياد السمك كان يطير بعيداً باجنحته الكبيرة واللقلق اللامع البهي قام وطار مصوتاً بصوته المعروف ها ها ها

وبعد ما صعدوا في النهر رأوا من بين شجرة التين الهندي وشجر الكاكاو بعض الافريقيين ينزلون السلالم التي امام اكواخهم المبنية على قوائم فوق الارض الموحلة وسكان المستنقعات هؤلاء حملقوا بعيونهم مندهشين من منظر تلك البواخر التي تطفطف اثناء سيرها

فقال شيخ كان واقفاً على ظهر الباخرة بيرل ان هذه قرية مصنوعة من شجرة واحدة مثل زوارقنا فقذفوا وراءنا في زوارقهم السريعة

صائحين مالوندا «اشياء للبيع» ورفعوا سلال ارز وانواع طيور واخيراً خرجت الباخرتان بيرل وام روبرت من نهر الكونغون ودخلتا الى ذات نهر زمبيزي المتسع والتماسيح التي كانت نائمة على الشواطئ وافواهها مفتوحة قد استيقظت وتسللت في النهر بسرعة عند سماعهم صوت دواليب البواخر اما العسنت اذ كان يغتسل في قاع النهر قد قام ونفض الماء من فوق رأسه الهائل وفتح فمه وتثاءب بصوت كما من مزمار ضخم

ثم صار النهر قليل الغور حتى لا يكفي لمرور الباخرة بيرل فيه ولذلك خزنوها على شاطئ شوپانغا وهي مركز برتغالي والرفاص ام روبرت سافر وحده وصار ينفخ ويطفطف انما صوته بطيء. ومواقده لا توقد الا بالخشب وما يمكن قطعه من الخشب في ثلاثة ايام يكفي لسيره يومين وكان مخيباً لآمال لفنجستون حتى انه لقبه بذي الربو (ضيق النفس) لانه كان يلهث وينهج اثناء سيره

واخيراً وصل الزورق الى تتى حيث كان قد ترك المستر لفنجستون رجاله الماكولولو ولما صعد الى الشاطئ اندفع رجاله نحوه صائحين صياح الفرح برؤيته وقالوا ان الافريقيين قالوا عنك انك لا تعود ترجع ثانية اما نحن فصدقنا كلامك وبعضهم قد افرطوا في

الفرح حتى ركضوا ليعانقوه باذرعهم لكن البقية وبخوهم قائلين — لا تلمسوه لئلا توسخوا ثيابه الجديدة فتسلق الماكولولو على ظهر الرفاص وساروا على النهر ووصلوا الى موضع حيث كانت مياه نهر زمبيزي تتدهور من فوق الصخور وتدور حول حجارة كبيرة مسافة اميال كلها شلالات قليلة الغور . وعندئذ ترك لفنجستون ورفيقه الدكتور كرك الرفاص وصحبهما بعض الماكولولو وخاضوا النهر الضحضاح وتسلقوا الصخور بكل عناء حتى وصلوا الى الطرف الآخر من الشلالات وتسلل احد الرجال بكل خفة الى ان صار على بعد عشر ياردات من عسنت غارقاً في النوم واطلق عليه رصاصة وقتله ليعد طعاماً لهم اجمعين وكان تجاههم جبل عظيم يجري نهر زمبيزي في سفحه فقال خبيرهم (قائدهم) انني مؤكد ان النهر مستو وهادئ في هذا الموضع لانني قد تصيدت هنا . ولذلك قد رجعوا وهم ظانون ان هذه الشلالات قد ازالت كل صعوبة من السفر في النهر بالرفاص

ولكن في تلك الليلة عينها وهم في المحلة قد وصل اليهم رجلان من الافريقيين وقالا لهم ان الخبير قد اخطأ في ما قاله لكم فان المياه التي امامكم ليست هادئة مستوية بل يوجد في طريقكم شلال يدعى

مورومبوا. فالتفت لفنجستون نحو الخبير وسأله اذا كان الامر صحيحاً فاجابه الخبير انني لا امضي بكم الى هناك لانه لا يستطيع انسان الوصول اليه ولا فيل ولا عسنت حتى ولا تمساح. اما لفنجستون فصمم على الذهاب

وكانت الجبال على جانبي النهر على علو ثلاثة آلاف قدم وكلها صخور سوداء واشواك فجعلوا يقفزون من سن صخرة الى اخرى ويزحفون حول حافات صخرة عالية بحيث لو زلت قدم احدهم لهووا جميعهم الى دوّارات المياه الفائرة تحتهم وكانت اشعة الشمس تضرب على الصخور السوداء حتى لم يستطيعوا ان يلمسوها بايديهم لشدة حرارتها واحترقت ارجل الماكولولو العارية وسمع لفنجستون تذمرهم قائلين — لقد كنا نظن ان له قلباً من يستطيع ان يسير هنا ويعيش! حقاً انه قد جن ولم يعد له قلب — واخيراً سمعوا عجيج الماء ووصلوا الى شلال مورمبوا حيث النهر الذي عرضه نحو ميل يحجز في منحنى الجبال وينحصر في مجرى لا يزيد عن خمسين ياردا ومن ثم يسقط من الشلال فيسبب فوراناً هائلاً في الماء

نعم ان ذلك الشلال كان جميلاً لكنه وقف سداً منيعاً تجاه اغراض لفنجستون لانه كان يقصد طريقاً تسهل المتاجرة في اواسط

افريقيا ورأى انه يمكن عبور الشلال بواسطة وابور بخاري كبير عند ما يكون النهر ممتلئاً اما رفاصه ذو الربو فهو لا ينفع في عبوره وكان النهر واطئاً في ذلك الحين

ولما رجعوا الى شوينغا قال لفنجستون هلم بنا نرجع من نهر زمبيزي ونسافر في نهر شيريه الذي يصب فيه ذلك النهر الذي لم يرُده احد بعد فاجابه البرتغاليون وسكان ذلك المكان قائلين ان ذلك لمن المستحيل لان النهر مسدود بطحلب البحر وعدا ذلك فان الاهالي يقوسونهم بسهام مسمومة . اما لفنجستون فقد صرف حياته الماضية وهو يعمل ما يقول عنه الناس انه مستحيل وعليه قد ادار دفة الرفاص البخاري نحو نهر شيريه حيث لم يسافر عليه قط رجل ابيض قبلاً وعند ما تطلعوا الى الشاطئ رأوا الاهالي بقسيهم وسهامهم مختفين وراء الاشجار ومصوبين عليهم فكان قد تجمع على الشاطئ خمسماية رجل افريقي مسلحين من قرية يحكم عليها الرئيس تنجاني وهذا الرئيس لم يكن يسمح قط لاي برتغالي ان يصعد في النهر ولا لاي افريقي ان ينزل فيه وكان رجل اشيب يزيد طوله عن ست اقدام فكل المتوحشين الشرسين صاحوا للرفاص حتى يرجع ويهددوا المسافرين فيه بالقتل بسهامهم السامة

فعند ذلك وضع لفنجستون حياته في كفه وخرج وحده الى الى الشاطئ بلا سلاح ولا شيء يحميه وتوجه نحو اولئك المتوحشين المتهيجين . فتجاسره هذا وهدوه وابتسامته امام الموت المنتظر قد اوقعت الرعب عليهم ولما وصل اليهم قال لهم انني آت بالسلام فانني لا اسبي احداً منكم ولم آت لآخذ عبيداً فانني رجل انكليزي ورغبتي هي ان اجد طريقاً لنأتي اليكم ونشتري منكم قطناً وانا اعتقد بان لنا جميعنا آب واحد وهو فوق الكل وجميعنا اولاده سواء كنا سوداً او بيضاً . وابونا يغتاظ اذا كنا نبيع او نشتري اخوتنا

فسر الرئيس تنجاني من هذا الكلام وتصادقا في الحال وبعد ذلك صرح للرفاص ان يصعد النهر وسافروا مسافة مائتي ميل الى ان وصلوا الى ستة شلالات مزبدة المياه وسموها شلالات مورتشيسون ولم يمكنهم بعد ذلك ان يسيروا في النهر اكثر بالرفاص عدا ذلك ان الرفاص قد صار يرشح الماء فيه من الف ثقب وثقب حتى نقعت الماء في كل غرفه فامتلأ بعوضاً الا انه رجع في مسيره في نهر شيريه ثم زمبيزي حتى وصل الى تتى ثم صعد ثانية في رحلة اخرى الى شلالات شيريه فصادف لفنجستون مناظر عجيبة في كل منحنى من منحنيات النهر فقد كانت هناك اشجار الاناناس

والبرتقال والليمون وكذلك القرود التي تتطوح في النباتات المعرشة (والبزاة) الصقور تنقض على الاسماك في الماء والغزلان تهرب بين الاشجار

وعدَّ مرة ثمانماية من الفيلة في مستنقع واحد فغنم منها خنوصاً صغيراً وكتب لابنه توما بانكلترا عن ذلك في مكتوب ارسله له وقال له — «ان حجم ذلك الخنوص كحجم اكبر كلب رأيته لكن احد الماكولولو قطع خرطومه في هياجه فنزف دماً كثيراً ومات بعد يومين فلو عاش لكنا ارسلناه الى جلالة الملكة لانه لم يرَ احد فيلة افريقية في انكلترا. ومرة قتلوا حيتين هائلتين طول الواحدة عشر اقدام واخرى بينما كان الماكولولو يشعلون النيران في الاعشاب التي على الشاطئ برزت جاموسة من وسط النار وهجمت على شاب افريقي يدعى منتلانيانى فذعر هـذا وولى هارباً من ذلك الوحش الضاري واندفع في النهر ولم يكن بين ظهره وقرن الجاموسة سوى ست اقدام

ومرة هرب عسنت من النهر بسبب طفطفة الرفاص فسقط في مصيدة قد حفرها احد الاهالي وأعملت عارضة خشب كبيرة في ظهره وانغرز فيه رمح مسموم فقتله اما التماسيح فكانت تنقض

على الرفاص لكن عند ما تقترب اليه تنذعر فتغوص الى قاع النهر

وكان يرقب لفنجستون من فوق سارية الرفاص فيرى غربان الماء ذات الرقبة الطويلة تغطس برأسها في النهر وابا جراب كبير الحوصلة يعوم فوق الماء ومالك الحزين (اسم طائر كبير) طويل الرجلين يتفرس مملقاً في الماء لاجل السمك والعصافير النساجة ذوات الألوان الحمراء تزقزق لبعضها في اوكارها المعلقة بين الحشائش والصقور الصغيرة الجميلة تنزرق وراء الذباب الفارسي اللامع

ولما رسوا على البر سار الاثنان والاربعون معاً الى جهة الشمال الشرقي على شاطئ نهرٍ جارٍ ثم شرعوا يتسلقون تلال منغانجا فتطلعوا وراءهم من فوق تلك التلال فرأوا النهر ذا الماء الفضي والغابات الخضراء والجبال الزرقاء البعيدة وكان الهواء فوق تلك التلال عليلاً فناموا تحت الاشجار لانهم كانوا مرتفعين كثيراً عن الارض الرطبة التي يكثر فيها البعوض

واكتشفوا بحيرة شيروا الجميلة ثم ساروا في طريقهم متتبعين نهر شيريه فوق شلالات مورتشيسون الى ان وصلوا في ظهر ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ الى بحيرة نياسا وكانت تبرق مياهها في عيونهم من ضوء شمس الظهيرة وكان لفنجستون اول شخص ابيض

رأى بحيرة نياسا هذه فناموا تلك الليلة داخل جذوع شجرة تين هندي هائلة في ذلك المكان بحيث كان يستطيع اربعة رجال ان يناموا بالراحة بين فلقات جذوعها المتولدة

فاتاهم هناك بعض النخاسين وقدموا لهم صبياناً وبنات ليبتاعوهم عبيداً فجزع ذلك القوم لما قال لهم لفنجستون انني رجل انجليزي وفي الليل نزحوا وفروا هاربين لانهم كانوا عارفين ان البريطانيين يبذلون كل جهدهم في ايقاف هذا الشر الفظيع من افريقيا وعندما رأى الماكولولو اخوتهم الافريقيين يباعون بيع السلع قبضوا على رماحهم بايدٍ مرتعشة غيظاً وحنقاً وقالوا للفنجستون واصواتهم مختنقة من الغيظ — لماذا لا تسمح لنا بمنعهم وصدهم عن هذا الصنيع الشنيع

لفنجستون يحرر العبيد

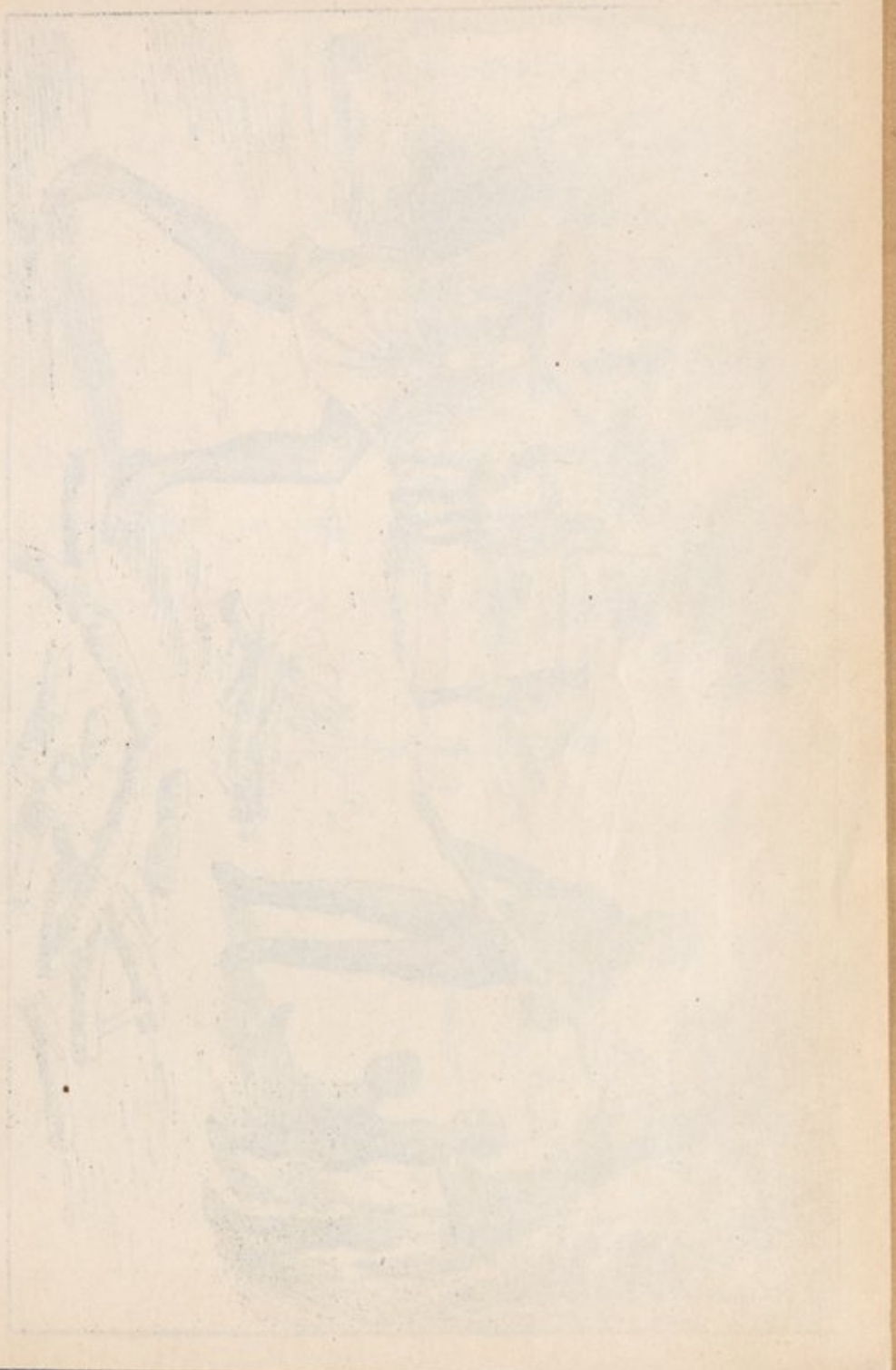

الفصل الحادي عشر

وخامة قرى محترقة بالنار

جلس لفنجستون يوماً ما وحرر خطابات مطولة الى بريطانيا يستحثهم قائلاً «هلموا تعالوا وأسسوا مستعمرة هنا. أرسلوا مرسلين ومزارعين وعمالاً»

وعند ما رأى عبيداً مأسورين حديثاً مكدسين في قارب عربي قديم ليعبروا بهم بحيرة نياسا تصور انه لو وجدت باخرة بريطانية واحدة في تلك البحيرة لكانت كافية لابطال تجارة الرقيق من تلك البقعة وتطلع الى شواطئها الجميلة وآكامها المكسوة بالخضرة وصوّر لنفسه ان تلك الطرق لا تعود تهدد بتجار العبيد التعساء بل تمتلئ بمستعمرة مرسلين بريطانيين وامريكان

وبينما هو ينتظر رد خطاباته اقلع راجعاً نهري شيريه وزمبيزي الى تتى في الرفاص الذي كان قد تخرق من كل ناحية وعدده تقعقع وتخبط في كل دورة ورسى في تتى ومن ثم قصد ان يفي بوعده القديم فارجع رفاقه الماكولولو الى بلادهم التي كانوا قد تركوها منذ

سنين طويلة وجاهدوا في رجوعهم في طريقهم القديمة وراء شلالات فكتوريا حتى وصلوا الى لنيانتي

وهناك قد حزن لما رأى ان كل المرسلين الذين كانوا قد ذهبوا ليعلموا الماكولولو قد قضى نحبهم وان سيكيليتو صار مريضاً وفرح لرؤية صديقه الرئيس ثانية وجعل ينظر الى صبيان الماكولولو وبناتهم يلعبون ألعابهم واحدى تلك الالعاب ان تحمل بنتان بنتاً اخرى صغيرة وتسيران بها دائرتين والبقية يصفقن جميعاً بايديهن وكان يقف الاولاد امام كل كوخ وينشدون اناشيد جميلة وهكذا يصرفون اوقاتهم وهم مكتسون بتنورات صغيرة مصنوعة من جلد البقر

اما أغلب ألعابهم فكانت اللعبة التي يسمونها — لمبة التقليد — اي ان البنات وهن مؤملات ان يصرن امهات يبنين اكواخاً صغيرة ويعملن قدوراً صغيرة من الطين ويعزقن بساتين صغيرة ويصحن الدرة ويطبخنها والصبيان كانوا يرمون المزاريق المصنوعة من قصبة سنها خشب ويحملون اتراساً صغيرة او يقوسون على شجرة بقسي وسهام صغيرة او يعملون زرائب صغيرة للمواشي ويحبسون فيها ابقارهم التي عملوها من الطين بقرونها المعوجة الجميلة

وجعل الناس يراقبون لفنجستون ورأته امرأة من الماكولولو تدعى تسيلانى يعمل بعض تجارب علمية بموازين الحرارة (ثرمومتر) التي كانت معه فضحكت منه وقالت هازئة — يامسكين — انه يلعب كولد صغير —

ثم سافر راجعاً الى نهر زمبيزي وبقي معه بعض من رفاقه الماكولولو اما رفاصه القديم الذي صار مملوءاً بعوضاً وبما ان اسمه كان «ذا الربو» فهو اسم على مسمى اذ صار يلهث ريضج. ففي ذات يوم صدم شاطئاً رملياً فغطس الى قاع النهر ولكن كان سبق لفنجستون فطلب رفاصاً آخر فاجابة لطلبه أرسل له رفاص جديد جميل انما كان به عيب واحد وهو انه كان يستلزم له للسير خمس اقدام من الماء بدلاً عن ثلاث ولذلك كثيراً ما يسير على الارض عند الشطوط الرملية وكان اسم هذا الرفاص «پايونير» اي ممهد الطريق

فودعه أناس كثيرون وهو على ظهر «پايونير» فوق نهر زمبيزي وهؤلاء المودعون كانوا الاسقف ماكنزي وجماعة من المرسلين الذين اوفدتهم جامعتا اكسفورد وكمبردج ليشتغلوا في شيريه وكانوا قد ابحروا معه نهر شيريه الى شلالات مورتشيسون ومن ثم مشوا راجلين الى الاراضي العالية بجوار بحيرة نياسا

وكان قد سبق فذهب الى قرية جماعة برتغاليون قائلين «نحن اولاد الدكتور» فمن محبة الاهالي للفنجستون ترحبوا بهم لكنهم وجدوا انفسهم في قبضة تجار الرقيق ولما دار لفنجستون زاوية التل رأى واذا صف طويل من الرجال والنساء والاولاد مربوطين الواحد بالآخر بسلاسل وحبال وقضبان الاسر مشدودة حول رقاب الرجال يسوقهم بعض الافريقين حاملين بنادق فوق اكتافهم يتبخترون في سيرهم مغتصرين ويوسعون الاسرى ضرباً وينفخون في ابواقهم افتخاراً بما عملوا ولكن عند ما وقع بصر قائدهم على لفنجستون تغير وجهه واعطى علامة الخطر ولكن في لمحة بصر اذا باولئك المجعجعين الاسافل قد هربوا كالمجانين في الغابة ولم ير من آثارهم سوى نعالهم وطرابيشهم الحمراء

فاخرج لفنجستون ورفاقه سكاكينهم وبكل فرح قطعوا أربطة النساء والاولاد ثم تناول منشاراً وقطع به قضبان الأسر التي كانت حول اعناق الرجال واحرقوا تلك القضبان وهيأوا على نارها طعاماً لفطور اولئك الذين كانوا اسرى فتحرروا لانهم كانوا مائتين من الجوع ثم تقدم صبي كان أسيراً منذ عشر دقائق والآن صار حراً الى لفنجستون وقال ان اولئك القوم كتفونا واماتونا

جوعاً اما انتم فقطعتم الجبال وقدمتم لنا لنأكل فأخبروني اي شعب انتم ومن اين أتيتم ؟

اما أولئك العبيد المحررين فقد صاروا باكورة كنيسة المرسلية الاسقفية

وبعد يومين رأوا دخان قرى متقدة بالنار وصادفوا في طريقهم عساكر منتصرين وعويل نساء منغانجا وحول جانب التل اتى عساكر اجاوا بالاسرى الذين سبوهم من منغانجا ولما سمع الأجاوا كلمات سب من بعض المتوحشين الذين كانوا وراء لفنجستون هاج غضبهم واخذوا يرشقونهم بسهام مسمومة واقتربوا اليهم يرقصون بهيئة مرعبة فاضطر جماعة لفنجستون لان يطلقوا بنادقهم ليخيفوا بها جماعة الأجاوا ويبعدوهم عنهم وهذه هي المرة الوحيدة التي خاب فيها لفنجستون من عمل السلام وذلك بسبب ان المتوحشين الذين كانوا معه صرخوا بعبارات السب للآخرين

ثم اقلع لفنجستون ثانية الى بحيرة نياسا في قارب له اربعة مقاذيف تاركاً الاسقف ليؤسس ارساليته في ماجومبرو فقذفوا القارب بالمداري وحملوه فوق الشلالات ثم نزعوا القلع وقذفوا

بالمقاذيف الى ان وصلوا الى البحيرة ورادوا خلجانها الجميلة وجعلوا يراقبون صياديها

وذات يوم بينما كانوا بعيدين عن الشاطئ بنحو ميل قامت زوبعة مكتسحة البحيرة واهاجت العواصف وكانت الامواج تضرب القارب الصغير وصار يرتفع وينزل من اسفله الى قمته بالامواج الهائجة فوجهوا مقدمه للزوبعة بالمقاذيف والدفة ولو ضربت احدى تلك الامواج الهائجة جنب القارب لقلبته بلفنجستون ومن معه واغرقته في اعماق البحيرة لكنهم نجوا بمعجزة ومن ثم هدأت العاصفة واخيراً وصل لفنجستون والدكتور كرك الى البر سالمين ففرح بهما اصدقاؤهما الواقفون على الشاطئ

ثم رجعوا ونزلوا نهر شيريه ثانية وحصل ان لفنجستون قد هاج ثائره لان ام روبرت التي لم يرها منذ ما ترك مدينة الرأس كانت قد ولدت ابنة صغيرة اثناء وجودها مع امها في كورومان ثم ذهبت الى بريطانيا لترى بقية اولادها والآن قد رجعت لتصحب زوجها في اسفاره وعند ما دخلت الباخرة التي اقلتها فوهة نهر زمبيزي عاينت زوجها على علبة دولاب الرفاص اثناء سيره لملاقاتها ولم تلبث سوى بضعة اسابيع في شوبانغا على نهر زمبيزي حتى اصيبت بالحمى

فجعل لفنجستون وصديقه الدكتور ستيوارت الذي حضر معه من بريطانيا يعالجانها بكل اعتناء لكن مرضها اشتد عليها وتوفيت فانكسر قلبه على موتها ولم يفارقه ذلك الحزن بعد ذلك طول مدة سفره

ثم ترك نهر زمبيزي وقلبه متمزق من الحزن وابحر صاعداً على شواطئ افريقيا وابتدأ برحلة اخرى هو واصدقاء آخرون في نهر روفوما في قوارب تسير بالمقذاف ليبحث عن اقرب طريق توصله الى بحيرة نياسا . فحيوانات العسنت البليدة الموجودة في روفوما قد هاجت غيظاً بسبب اولئك البشر الذين قد اتوا ليكدروا عليهم صفو عيشتهم الهادئة وقد شق النهر واحد من تلك العسنتة وتبع القارب وغاص تحته وفتح فكيه الهائلين وحاول ان يكسر قاع القارب حيث كان لفنجستون واقفاً ولم يكن بينه وبين فم ذلك المارد سوى قيراط واحد . ولكنه لما لم يستطع ان يكسر القاع رفع القارب باكمله من الماء بقوته الهائلة وكان فيه وقتئذ عشرة رجال وطن من خشب الابنوس وبما ان القاع كان مسطحاً حتى لم يستطع ان يقرضه باسنانه قد تركهم وغاص ثانية الى قاع النهر

وحدث ذات يوم في الصباح قبل طلوع الشمس ان بعض المتوحشين المسلحين بالقسي والسهام والبنادق قد اتوا الى محلة

لفنجستون ولما اخذ القارب وسافر مشوا وراءه على الشاطئ وبعد قليل تبعهم آخرون ثم اختفوا في الغابات وساروا في طريق اقصر وخرجوا عند منحنى النهر امام القوارب واذا بسهم قدحف في الهواء فاوقف لفنجستون القارب ليمكنه ان يتحادث مع المتوحشين وخاض احد الافريقيين الذين مع لفنجستون الى البر بكل جسارة وقال لهم اننا لم نأت للقتال بل اتينا لنرى النهر ولكن بينما كان هذا يتكلم قد زحف بعض المتوحشين متسللين ونزلوا في الماء من وراء القارب وصاروا يرقصون هائجين وسحبوا قسيهم ووضعوا سهامهم في الاوتار وآخرون على الشاطئ صوبوا بنادقهم عليهم فقال لهم لفنجستون وهو امام السهام «ان لدينا بنادق لكنا لا نريد أن نقتلكم لاننا جميعنا اولاد ابينا العظيم» فاصغوا الى هذه الجملة فانزل قائدهم سلاحه وخاض الى الشاطئ مردداً اياها — «جميعنا اولاد ابينا العظيم»

ولما سمع لفنجستون اولئك القوم يقولون — هذا النهر نهرنا قال لهم انه مستعد ان يعطيهم رسم العبور اقمشة واعطاهم فعلاً ومع ذلك عند منحنى النهر اندفعوا الى الشاطئ واطلقوا بنادقهم وسهامهم السامة فطنت السهام فوق رؤوسهم ورصاصة البندقية ثقبت القلع

فوق رأس لفنجستون تماماً اما رجال لفنجستون فاطلقوا بنادقهم فوق رؤوس المتوحشين ليخيفوهم ومن ثم هربوا في الغابات

ووجد لفنجستون ان نهر رفوما ينقسم الى فرعين ولكن لا يصل فرع منهما الى بحيرة نياسا ولذلك رجع الى البحر على طول الشاطىء ومن ثم صعد نهري زمبيزي وشيريه ثانية وفي هذه المرة قطر الباخرة التي عملت خصيصاً لاجل بحيرة نياسا في الرفاص المدعو «ممهد الطريق» واسم الباخرة «السيدة نياسا» ورأى على طول ذلك الوادي قرىً محروقة وهيا كل الافريقيين المائتين جوعاً والمقتولين وهذه كانت من الآثار الهائلة لتجارة الرقيق

ووصل مكتوب من الحكومة البريطانية يستدعي لفنجستون للرجوع الى انكلترا لكنه لم يستطع الرجوع حالاً لان ذلك الفصل كان فصل الجفاف و«ممهد الطريق» (الرفاص) لا يمكنه ان يعوم الا بضعة اشهر عند ما تملأ الامطار النهر

وقام لفنجستون في الوقت عينه ليسافر الى بحيرة نياسا بقارب حمله الحمالون الى ما بعد الشلالات وقد عبروا به كل الشلالات ما عدا الاخير فكان يضع الماكولو القارب في تيار ماء سريع بين تلك الشلالات ويدفعونه بالمدراة حتى صاروا بقرب آخر شلال

وهناك سحبوه الى الشاطىء . وصاح بعض رجال نهر زمبيزي قائلين الآن نريكم كيف تسيرون القارب فتناولوا الحبل من ايدي الماكولولو وقفز ثلاثة منهم داخل القارب واثنان صارا يسحبان الحبل وامسكت الشلالات بمقدمه فانبرم وخطف الحبل من ايدي رجال الزمبيزي فانقلب القارب وصار قاعه الى فوق ثم انبرم في دوارة (دوارة الماء) وغطس في الشلال منزرقاً مثل السهم

فاتى جماعة الزمبيزيين الخجلين الى الشاطىء وسجدوا امام قدمي لفنجستون طالبين منه الصفح ومع انه كان متكدراً مما حدث لكن من عادته ان يقول «العايط في الفايت نقص من العقل ونقص من العمر» ولذلك ارسلهم الى الرفاص ليأخذوا لهم طعاماً وثياباً وخرزاً تعويضاً عن اولئك الذين غرقوا مع القارب وانصرف

ومشى راجلاً هو والدكتور كرك وبعض الماكولولو الى الغرب من بحيرة نياسا ثم سار الى الشمال حتى وصل بعد مسيرة عشرة ايام الى بحيرة اخرى تدعى بنغويولو ومرة في هذه الرحلة كان نائماً امام كوخ لكنه كان يقدر ان يتسمع لكل ما يجري داخله وعند الساعة الثانية بعد نصف الليل سمع امرأة افريقية تطحن الذرة على الرحى ثم سمع صوت فتاة قامت من نومها وقالت — يا امي

لماذا تطحنين في العتمة ؟ – فقالت لها امها اذهبي ونامي لاني اطحن هذه الذرة لاشتري بها اقمشة من هؤلاء الاجانب فاجعلك تظهرين كسيدة صغيرة

ورجع لفنجستون قبلما يصل الى بحيرة بنغويولو لانه كان فصل الامطار وصار يمكنه ان يبحر بالرفاص و«بالسيدة نياسا» في نهر زمبيزي ويرجع الى بريطانيا وفكر في بيع «السيدة نياسا» لبعض تجار الملاحة في زنجبار فقطرت «سيدة البحيرة» (لانه هكذا اراد لفنجستون ان يدعوها) في طراد من طرادات الحكومة يدعى «اريل» وسحبها الى الساحل في موزمبيق . ولكن قامت زوبعة بغتة من الشمال فهاجت امواج الاوقيانوس وارجعت الطراد في اثرها الى الوراء فانقضّت على مؤخر السيدة نياسا اول كل شيء والتفّت الحبال على الدولاب فوقفت العدة وتعسر جداً خلاص لفنجستون لان الطراد الكبير ارتفع وظهر انه مزمع ان يسحق الرفاص الصغير لكن الطراد قد احتك احتكاكاً خفيفاً في مقدم الرفاص وابتعد عنه ولم يؤذه بشيء وكان صعباً جداً ومخطراً أيضاً ان يأتوا بحبل آخر من الطراد الى رفاص لفنجستون حتى يسحبه على الساحل ولذلك قد رموا برميلا من الطراد في البحر به حبل مربوط فيه ثم

قفز احد رجال لفنجستون في البحر الهائج ممسكاً زنجيراً بيده وربط الزنجير في البرميل من ثم سحب الحبل من الطراد والزنجير مربوط بالرفاص وبهذه الكيفية سار الطراد قاطراً الرفاص خلفه في شدة الزوابع حتى وصل به الى موزمبيق

وبعد ما مسح لفنجستون رفاصه ونظفه في موزمبيق سافر الى زنجبار واستفهم بخصوص بيعه هناك فوجد انه لا يستطيع بيعه في تلك البلاد لانه لا يشتريه الا اناس يستعملونه في حمل الرقيق مع انه قد صرف كل نقوده في بناء «سيدة البحيرة» فماذا يعمل اذاً ؟ انه كان يفضل ان يراه يغوص في عمق الاوقيانوس الهندي عن ان يكون في ايدي النخاسين ومن ثم صمم على أمر هو اخطر من جميع ما مر به في حياته وذلك انه عزم على ان يعبر الاوقيانوس الهندي المتسع برفاصه الصغير ومعه نفر قليل من النوتية الذين لم يسبق لهم ان رأوا البحر ولم يكن معه على ظهر الرفاص سوى اربعة عشر طناً من الفحم فتعلم النوتية بسرعة كيفية التسلق على السارية ووضع الحبل في بكرة في آخرها واخذ طرف الحبل في فمهم ثم يرجعون قافلين وكل حركة يتحركها القارب تبللهم بالماء

وكان يقف لفنجستون ممسكاً الدفة تحت الشمس المحرقة

ويقود رفاصه الصغير في الاوقيانوس بواسطة العلم الذي كان قد علمه اياه قبطان الطراد جورج قبل ذلك الوقت بثلاثين سنة عند اول سفره من بلاده وهو شاب صغير . ثم سكنت الريح وكان عليه ان يقتصد في الفحم ويوفره لاجل السفر على ساحل بلاد الهند الى بومباي لكنه سار مطمئناً في الاوقيانوس وقلوع الرفاص تخفق على السواري المهتزة واشعة الشمس الحارة تضرب على رؤوسهم وكانوا يراقبون كلاب البحر الشرسة والدلافين التي تلعب في الماء والسمك الطيار وهو يطارد الواحد الآخر في البحر الهادى

ثم تغير الجو وزأر الريح وهبت العاصفة واندفع الرفاص الصغير في البحر الذي ليس له حدود والعاصفة تصفر في حباله وقبطانه لا يزال باسلاً جريئاً واقفاً بجانب الدولاب ومتطلعاً في العاصفة والامواج المزمجرة كانت تمر به كأنها تريد ابتلاعه او اغراقه الى اعماق المحيط لكنه كان يقوم وينزل مع الامواج فيكون مقدمه اولاً في الهواء وهي رأس الموجة ويكون مؤخره محلقاً في الهواء كذلك وكأنما همة قبطانه وروحه الباسلة كانت تحييه اثناء مخره في المحيط وكان ينفض الامواج من على ظهره ومر في العاصفة الى ان وصل الى بومباي بدون ان يراه احد

فابحر لفنجستون في باخرة من الهند الى انكلترا فقامت بريطانيا عن بكرة ابيها رافعة الرايات ومهللة مرحبة برحالة افريقيا البطل ويوجد الآن ممن عاينوا ذلك الباسل المقدام الذي وان لم يكن كبير الجسم لكنه سريع الخطى له محيا جندي باسل وعينان حادتان تخترقان من يتطلع اليه بهما فصار يلقي خطابات في طول البلاد وعرضها محركاً اهلها لمقاومة تجارة الرقيق وقد كتب كتاباً معنوناً «زمبيزي وروافده» (اي الانهار التي تصب فيه) مملوءاً من الحكايات عن الاولاد الافريقيين المنكسري القلوب التعساء المطرودين من قراهم المحترقة بالنار حتى نفس قلب انكلترا اشتعل طالباً تحرير الافريقيين

ثم ابحر في باخرة راجعاً مرة ثالثة الى افريقيا فوقف في مؤخر الباخرة مودعاً شواطئ انكلترا الوداع الاخير ومحيياً الذين ودعوه التحية الاخيرة لانه لم ير بريطانيا ثانية

الفصل الثاني عشر

السفرة لاجل الرقيق

كانت الشمس الحارة تضرب على اسوار زنجبار البيضاء المشرفة على البحر ولما دخل لفنجستون المدينة سار في شوارعها القذرة حتى وصل الى ساحة طلقة حيث صياح الرؤساء الهائجين وضوضاء البيع والمساومة ونباح الكلاب يملأ الجو حوله ورأى كثيرين من الافريقيين مجتمعين — اسرابا من الاولاد العراة ذوي الاسنان البراقة ومن الشابات حاسرات الرؤوس خزياً وخجلاً ومن الآباء المحمرة عيونهم بغضة وحقداً ومن الامهات المملوءات اشمئزازاً ونفوراً يبكين بسبب سلب اولادهن واستبعادهم عنهن وكان يختال في وسط الافريقيين بعض الاعراب الضخمي الشفاه ولهم عيون تنم عن القساوة والشراسة

فكنت ترى احدهم يفتح فم فتاة ليرى اذا كانت اسنانها سليمة ويجس ذراعها كما يفعل الفلاح للغنم في سوق المواشي . وآخر يجعل احد العبيد يجري في الساحة كانه سيسي (حصان صغير)

ليتبين خطواته . فهذا كان سوق الرقيق في زنجبار وعند ما رأى لفنجستون هـذه المتاجرة في النفوس البشرية ورآهم قد حملوا ثلاثمائة غيرهم من الافريقيين في قارب وسافروا بهم الى المينا وعرف بان واحداً في كل عشرة قد وصل حياً الى زنجبار اما التسعة ففضلوا الموت عن الاسر او هلكوا في السفر فقد صرّ على اسنانه حنقاً من قساوة تجار هؤلاء العبيد الشنيعة وحزن في قلبه على افريقيا البائسة المحتقرة والمدوسة تحت الاقدام وكان مبتدئاً وقتئذ في سفرته الطويلة الاخيرة — سفرة تجارة الرقيق

ومن ثم صعد على ظهر المركب الذي كان قد استأجره وابحر به مدة اربعة ايام جنوباً حتى وصلوا الى فم نهر روفوما الذي يجري من تلال افريقيا الوسطى ويسير الى الساحل الشرقي ولما لم يجدوا مكاناً ليرسوا فيه ابحروا قليلاً الى خليج مكنداني وهناك بصياح عال وسحب ودفع قد انزلوا الى البر الستة الجمال والثلاث الجواميس والبغلين والاربعة الحمير التي كانت تحمل مؤونتهم ونزل ايضاً الستة والثلاثون رجلاً رفقاء لفنجستون وكان بعضهم هنوداً وبعضهم افريقيين وقد عاونهم الكلب شيتاني بنباحه

وقد مشوا راجلين في ممر ضيق في وسط الحشائش المعرشة

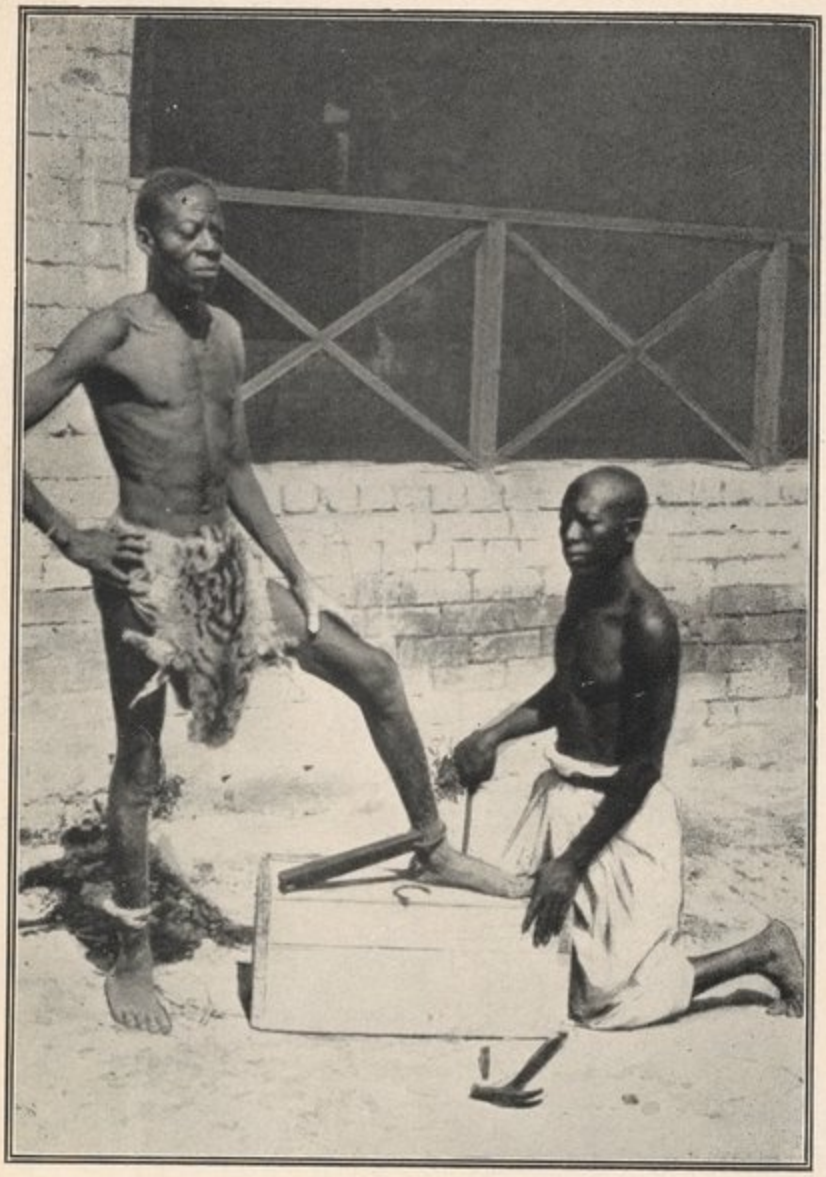

Photo by Harry Johnson.

The kneeling African is a Christian, who is setting a slave free at a mission station by taking the shackles off his legs.

افريقي مسيحي يحرر عبداً

فوق رؤوسهم اثناء حرارة الشمس المتوهجة وكانوا يتلهفون النسيم فلا يجدونه وكان عليهم ان يجتازوا الطريق بين ادغال كثيفة ولذلك استأجروا بعض الشبان الاقوياء من اهالي ماكوندى ليقطعوا عيدان القنا والاعشاب المتعرشة من الطريق بفؤوسهم وكان الهواء في الوديان خانقاً مملوءاً بخاراً اما فوق التلال فكان نقياً

وتطلعوا من فوق احدى الجبال فرأوا نهر روفوما لامعاً كأنه شريط من الفضة على طول الوادي المتعرج وقد ساروا مشياً على الاقدام صفاً مستطيلاً كصف العساكر الهنود وهم يصعدون تارة فوق جبل واخرى ينزلون في واد متنقلين من قرية الى اخرى سائرين في الطريق الضيقة التي كلها اخاديد (شقوق)

وقد كان رفقاء لفنجستون الهنود سبب تعب وكدر له على الدوام مع انه كان شفوقاً عليهم فقد كانوا يضربون الحمير في رؤوسهم ويغرزون العصي المسننة في الجمال ومرة قتلوا عجل جاموس وكانوا كسولين كل حين

وذات ليلة وهو جالس في مدخل احد الاكواخ تطلع فرأى رجلين معهما امرأتان مكبلتان بالسلاسل ورجلاً وراءهما حاملاً بندقية فخطر على باله ثانية روع تجارة الرقيق ولاقوا امرأة على

عنقها خشبة ثقيلة مأخوذة من جذع شجرة صغيرة وكان عنق المرأة مربوطاً في شعب الخشبة وأجبرت عنوة ان تسير وهي حاملة هذا النير الثقيل فاشتراها من آسرها وحلها وارجعها الى اهلها

وقد مروا بقرية بعد اخرى واذا جميعها مهجورة وبساتينها قفراء لان اهاليها التي زرعت الاراضي وفلحت البساتين والاولاد الذين كانوا يلعبون فرحين بين اكواخ القرية قد سلبوا جميعاً واخذوا عبيداً. وصادفوا في طريقهم المرة تلو الاخرى محلات العرب وبها زرائب مكدسة بالاسرى مثل قطعان الغنم ولكن عند ما يسمع العربان بان لفنجستون قادم كانوا يهربون لانهم عرفوا انه انكليزي وقف حياته لابطال تجارتهم الممقوتة

وتقدم لفنجستون في سيره ومر بقرى كانت تتمتع بالسعادة قبلاً وأصبحت في حالة فقر وأوشك اهلها ان يموتوا جوعاً اما هو فكان يسير طروباً فوق التلال وفي الوديان واصبحت اعصابه صلبة كالخشب ووجهه احمر نحاسياً وعيناه الحادتان ترقبان آثار الحيوانات فوق الارض وتنظران جمال الزهور والنخيل والاعشاب المعرشة وبعد سير نهاره الطويل كان ينام ليلاً نوماً هادئاً على ان زئير الاسود كان يوقظه احياناً من نومه

واخيراً بعد ما كان يصعد بين الروابي العالية شرقي بحيرة نياسا عاد فرأى لمعان مياه تلك البحيرة الزرقاء التي كان قد سبق واكتشفها منذ سنين مضت فركض نازلاً الى شاطئ البحيرة وخلع ثيابه واندفع في وسط امواجها المتكسرة على الشاطئ وقال انه يلذني جداً ان اغتسل (استحم) ثانية في هذه المياه الجميلة واسمع هدير البحر وانزرق في وسط الامواج

ولما كان يحتاج الى حبر ليكتب به اخترع حبراً ازرق جميلاً من عصير ثمر العليق ممزوجاً بمواد كيماوية

أراد لفنجستون ان يعبر البحيرة فكان فيها مركبان مستعملتان لنقل العبيد لكن العرب تجار الرقيق ابوا ان يؤجروا له واحدة منهما خوفاً لئلا يحرقها ولذا قام لفنجستون ومشى راجلاً على الشاطئ الشرقي حتى دار الى الطرف الجنوبي من بحيرة نياسا ورأى اثناء سيره في الطرق التي فيها يشتد الحر وينقطع الهواء جماجم وعظام بشرية مبيضة من حرارة الشمس هي جماجم العبيد التعساء وقد خاض في برك كثيرة فوق الاكام حتى وصلوا الى الطرف الجنوبي من تلك البحيرة الضيقة التي تمتد شمالاً مسافة ثلثمائة ميل اشبه بحية هائلة

واثناء سيره في قرية مبندى وصل الى زريبة مملوءة من العبيد

منتظرين ان يساقوا سوق الانعام الى الساحل ليبيعوهم واغلبهم كانوا غلماناً يبلغ عمر الواحد نحو عشر سنوات فاذ تألم في قلبه من رؤيته اولئك الغلمان الذين قد اختطفوا من والديهم تمنى لو يمشي بدون توقف وينفض غبار تلك القرية عن رجليه على انه بقي فيها ليعطي دواء لابن الرئيس لانه كان مريضاً فتحسنت حالة الولد بسرعة ثم سافر جناب الطبيب شمالاً على شاطئ البحيرة الغربي . وحالما ابتدأ في المسير اتى اعرابي من تجار الرقيق من قرية رئيس يدعى مارنغا واخذ احد رجال افنجستون المدعو موسى على انفراد واخبره قصة خبيثة ملفقة كلها مكر ودهاء وغرضه منها ان يوقف لفنجستون عن التقدم . فقال الاعرابي لموسى يوجد رئيس متوحش يدعى مازيتو في الطريق السائر فيه الدكتور لفنجستون ومن عادته ان يقتل كل شخص يمر في اراضيه فبلا شك سيقتلكم اجمعين فذعر موسى من هذا القول واخبر بقية الحمالين بالامر سراً فهرب تسعة منهم ومعهم موسى تحت جنح الليل تاركين ذلك الرحالة الذي سار معهم كل تلك المسافة الشاسعة ثم نزلوا الى ساحل البحر ومن هناك ارسلوا الى بريطانيا خبراً قائلين ان لفنجستون قد قتل في معركة وقد صدق الكثيرون هذا الخبر وقليلون هم الذين قالوا انه خبر ملفق

الى ان توجه رجل انكليزي يدعى ينج الى افريقيا وهذا كان يعرف موسى منذ سنين ولم يكن يصدق كلمة من اقواله فاسرع ووجهته نهر زمبيزي ونهر شيريه ووجد ان القصة كلها ملفقة وبلغه ان لفنجستون سار متجهاً الى الشمال فمن ثم رجع الى بريطانيا ليطمئن قلوب الشعب الانكليزي بان لفنجستون لا يزال حياً

اما لفنجستون فلم يبلغه خبر هذا البحث او الاشاعة الملفقة التي اشاعها موسى بل افتكر فقط في جماعة الماكولولو الاوفياء الذين كانوا معه في رحلاته الاولى وتمنى أن يكونوا معه الآن وسر لان بعض الحمالين كانوا لا يزالون امناء اوفياء وسار معهم بدون خوف وكان كلبه شيتاني يجري طول صف السير من اوله الى آخره وينبح على المتطوحين منهم ثم يجري الى سيده وكان في الليل ينام في مدخل خيمة لفنجستون ويهب في اي انسان او حيوان يقدم ليؤذي سيده

وذات يوم كان عليهم ان يعبروا مستنقعاً خائضين وعرض ذلك المستنقع نحو ميل وعمقه الى الحزام (الخصر) فبدأ شيتاني ان يعوم في ذلك المستنقع بكل شجاعة مع ان سيده كان ظاناً ان احد الرجال حامل اياه — فجاهد ذلك الكلب كثيراً وصار يضعف اكثر واكثر الى ان غاص في الماء وغرق فحزن لفنجستون لخسارة هذا الرفيق الشجاع

وكان قد ترك تجار الرقيق الارض برية مقفرة حتى انه لم يجد شيئاً للاكل سوى الدخن وكان ينقعه في لبن الماعز التي كان قدجلبها معه وفيما بعد قد سرق منه الماعز ليلاً فالتزم ان يأكل ذلك الدخن الناشف بدون لبن فتلخلخت (انفكت) اسنانه وتساقطت الواحدة بعد الاخرى ووجد مكتوباً في يوميته قوله انني ضيقت حزامي ثلاثة ثقوب لأعين نفسي على احتمال الجوع وكان يحلم ليلاً عن الاكلات اللذيذة والطعام الشهي وحينما يستيقظ يجد نفسه اكثر جوعاً من الاول

وكان شاب امين من ضمن الحمالين الافريقيين اسمه بركه ولانه وكان حريصاً سلم له ان يحمل صندوق العقاقير الطبية (الادوية) وكان فيه مقدار وافر من الكينا التي كان يستعين بها على مكافحة الحمى ففي ذات يوم عرض حمال آخر على بركة ان يعاونه في حمل حمله عنه مسافة مرحلة ولكن ذلك الحمال الذي كان قد حرره لفنجستون من الأسر كافأ هذا المعروف بان هرب بالصندوق في غابة كثيفة حيث أن اقتفاء اثره كان امراً مستحيلاً وهكذا قد سرق صندوق العقاقير ولم يعد لدى لفنجستون سلاحاً يتقي به شر الحمى . وقال لفنجستون في ذلك — ان هذه الخسارة كانت تنهش في قلبي نهشاً

سريعاً وشعرت كما لو حكم علي بالاعدام الآن . ومع ذلك قد كتب في يوميته الخاصة وقال بان سارق الصندوق لا يلام كثيراً لانه كان عبداً وحررته ولكنه كان قد تربى تربية رديئة

وسار لفنجستون وهو مجرد هيكل عظام ينم عن نفسه القوية وهو مريض ووحيد مسروقة منه كل عنزاته وادويته وجوعان ومنهوك بالحمى ومهجور من اغلب رفاقه حتى كلبه قد خسره — سار الى قرية شيتابنغوا الرئيس العظيم الذي استقبله بدق الطبول واناس صاروا يصيحون ويهتفون طول الوقت

وكان شيتابنغوا هذا رجلاً سميناً بجبوحاً (طروباً) ويلبس في رجليه عدة خلاخيل من النحاس الاحمر والاصفر وقد باع بقرة للفنجستون لكنه صار على وشك العراك معه لانه حاول ان يجعل لفنجستون يأمر بعض حماليه ليعطوه (الرئيس) احرمتهم . فابى كل الاباءة قائلاً ان غلمانه احرار وليسوا عبيداً. وقد انهى الرئيس المسألة بان اعطى لفنجستون سكيناً من نحاس بمقبض من العاج التي كان الرئيس نفسه يلبسها في ذراعه

وسار لفنجستون راجلاً في وسط الوديان الجميلة وعلى التلال الشاهقة ذات الاحراش حتى وصل الى قمة استطاع ان يرى منها

مياه بحيرة تنجنيكا الزرقاء هادئة ساكنة في نور الصباح وكانت تتساقط شلالات من فوق الجبال الى البحيرة ورأى الجاموس والغزلان والافيال ترعى بقرب الشاطئ

ثم أصيب بالحمى حتى صار نحيفاً ويهتز اثناء سيره وكان يشعر بطنين في رأسه ثم صار الى حالة اردأ ثم صار يتمرغ ويتخبط خارج خيمته في اثناء بحرانه ثم سقط فاقد الوعي وانصدم رأسه في صندوق فحمله رفاقه القليلون الامناء الذين بقوا معه وأدخلوه الى كوخه

وتلك الجولة قد اوصلت ذلك الرحالة الى اواسط اراضي تلك البحيرة في افريقيا ولما تحسنت صحته اخبره الاهالي حكايات عن انهار عجيبة تجري في بحيرات كبيرة كالبحار وترى على الخارطة المرسومة في آخر هذا الكتاب انه لما سافر صاعداً من بحيرة نياسا وصل الى طرف بحيرة تنجنيكا الجنوبي واشتاق لان يتقدم الى اوجيجي على الشاطئ الشرقي من تنجنيكا حيث كانت محلة للعرب مؤملاً ان يرى مكاتيب من اولاده. مع ذلك لم يتقدم الى اوجيجي لانه سمع ان نهراً كبيراً كان يجري من بحيرة خفية الى الجهة الغربية من المحل الذي كان فيه ومنذ بناء الاهرام في مصر من اجيال طويلة مضت والناس كانوا يتساءلون باستغراب عن منبع النيل ومع ذلك

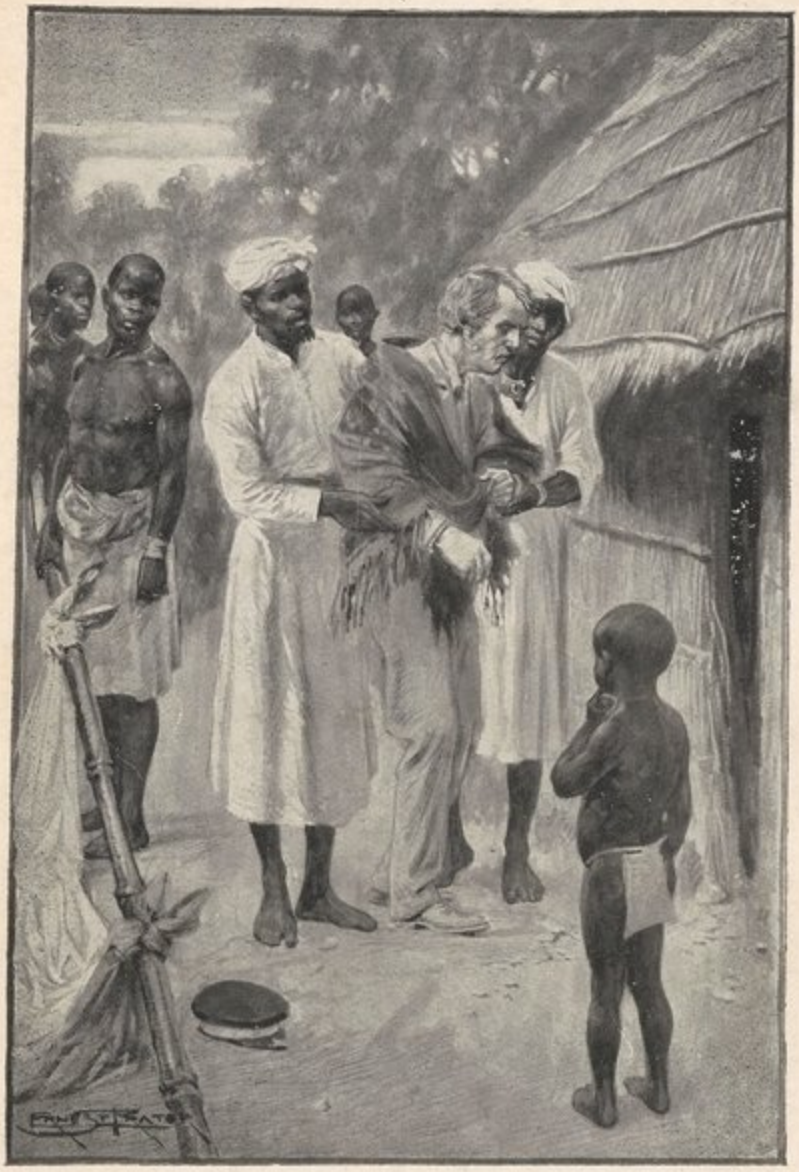

'HE ENTERED THE HUT.'

الرجال الامناء يدخلون لفنجستون الى الكوخ في ضعفه النهائي

لم يكن قد اكتشف منبعه احد واندهل لفنجستون لانه وصل اخيراً بقرب ذات البقعة التي ينبع النيل منها وذلك جعله ان يرتد راجعاً ويبدأ سيره من جديد مع انه كان تعباً للغاية ومنهوكاً بالحمى ولم يصله ولا مكتوب من بلاده مدة ثلاث سنوات

واخيراً في شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ قد اكتشف البحيرة التي كان ينشدها ونام هناك في كوخ صياد افريقي وابحر في بحيرة موبرو في قارب صيد ومشى راجلاً على شواطئها الى ان وجد ذلك النهر الواسع المدعو «لوالابا» جارياً الى الشمال اما النهر الذي يصب في بحيرة موبرو في الجنوب فاسمه «لوابولا»

ومن العجيب انك كنت ترى ذلك الرحالة (وهو في الرابعة والخمسين من عمره) ذا قلب نشيط في جبال افريقيا مثلما كان في الرابعة عشرة على تلال اسكوتلاندا ولذا ترى انه لم يهدأ باله حتى عرف منبع نهر لوابولا وكان يقول الافريقيون بانه ينبع من بحيرة كبيرة في الجنوب فقال لفنجستون لا بد ان اذهب واكتشف تلك البحيرة الا ان كل رفاقه ما عدا خمسة منهم رفضوا السير معه لان احد تجار العرب قد حرضهم واعتذروا عن ذلك بقولهم — اننا لا نعود نسير معك لاننا قد سرنا طويلاً جداً وكلما وجدت

بحيرة تقول لا بد ان اجد الاخرى فقد تعبنا ونريد ان نذهب الى اوجيجي طلباً للراحة ولا نسافر معك هذه الرحلة —

اما لفنجستون فكان قد صرح من زمن مضى بانه لا يحيد قيد شعرة عن عمله طالما فيه رمق من الحياة وبقي مصمماً على فكره وقال — لا بد ان اتقدم في سيري مهما رجع من ورائي من يرجع. وصوب وجهته الى الجنوب هو ورفاقه الخمسة الذين من ضمنهم اثنان وهما سوسي وشومه اللذين يفديانه بحياتهما وصارا أمينين وفيين له الى النهاية وقد مروا في طريقهم بقافلة من الاسرى وكان الرجال مربوطين بالسلاسل في اعناقهم وعصي الاسر مطوقة رقابهم ومع ذلك رآهم يغنون وينشدون فسأل لفنجستون لماذا يغنون بينما هم مكبلون بالسلاسل فاجابوه انهم ينشدون نشيد الانتقام ويقولون عند ما نموت يذهب النير عنا وترجع ارواحنا فنطارد الذين باعونا ونقتلهم . وكانت اصوات العبيد تعلو وتنخفض بهيئة مرعبة عند ما يكررون اسما الاشخاص الذين باعوهم وينشدون قائلين — سنطاردهم ونقتلهم —

وفي قرية على الطريق تدعى كازمبيز تلاقى لفنجستون باحد التجار العرب يدعى «محمد بو غريب» الذي لم يلبث حتى صار صديقاً

للفنجستون وقدم له شعرية وكعكاً وشهداً ليأكل وسقاه قهوة وواساه في سفره وحيداً وهكذا استمر لفنجستون في سفره الى ان اكتشف بحيرة بنغويولو وكان يزيد عرضها عن مائة ميل ووجد ان جزائر خضراء كانت بارزة في وسط مياه البحيرة الزرقاء فاقلع في قوارب وسار حتى رسا على تلك الجزائر وهناك تجمع الاهالي حول ذلك الرجل الابيض لانهم لم يروا قط رجلاً ابيض في ما مضى من حياتهم

وفي كل ميل تقريباً وهو سائر على شواطئ البحيرة يصل الى ارض نزة موحلة فيلتزم ان يخلع ثيابه ويخوضها الى الحزام في الماء البارد فيمسك دود العلق برجليه ويمتص دمه وهو اولى بنقطة منه وبعد ما رجع لفنجستون من بحيرة بنغويولو المتسعة مشى الى الشمال حتى وصل الى قرية كازمبيز حيث وجد ان محمد بو غريب ذلك العربي الذي لاطفه في ما مر على وشك القيام الى اوجيجي على شاطئ تنغنيكا وانتظر لفنجستون هناك لعله يجد المكاتيب والادوية والثياب الجديدة والجرائد من انكلترا لانه كان قد طلب ان ترسل له في تلك القرية. وقام محمد بقافلة العبيد التي معه ومحمد هذا كان قاسياً نحو العبيد بمقدار ما كان لطيفاً نحو لفنجستون لانه كان مصاباً

بالحمى والنيومونيا (التهاب الرئة) ولا يستطيع المشي وكان يحمل على نقالة مدة ستة اسابيع سائرين به في وسط وديان ضيقة وفي طرق الغابات ويعبرون به الينابيع وبجانب التلال بجوار تنغنيكا الى ان وصلوا به الى الزوارق التي على شط البحيرة

وكان الهواء شديداً عاصفاً والامواج تندفع بشدة على الشاطئ وكان يستحيل على الزوارق ان تعبر البحيرة وتصل سالمة فسافروا بالقرب من شواطئ الخلجان العميقة حتى تمكنوا اخيراً من عبور البحيرة ورسا لفنجستون في اوجيجي ووصله هناك ملابس وعقود من الخرز لاجل رفاقه الافريقيين وكذلك وصله مكاتيب وادوية وجرائد لشخصه اما اغلب المؤونة وكل المكاتيب ما عدا واحداً منها فقد سرقها العربان تجار الرقيق او احرقوها بالنار وكان قد كتب اربعين مكتوباً الى وطنه ودفع اجرة حاملها الى الساحل ولكن الخدم العرب قد افنوها جميعها

وقد عمل العرب كل ما في وسعهم في قطع كل صلة بينه وبين انجلترا مستعملين في ذلك كل مهارة شيطانية مظهرين كل حقد وكل ضغينة لانهم عرفوا بان اخبار متاجرتهم بالرقيق لا يعلم بها احد حتى يخبر بريطانيا عنها سوى لفنجستون وانه يستطيع ان يقيم العالم

ويقعده ضد تجارتهم الممقوتة فيستطيع اذاً ان يبيدها من الوجود اكثر من اي شخص آخر

فذلك الضرغام قد كان في وقت الشدة اذ كان محجوزاً ومحاطاً بحلقة من الاعداء مكشرين عن انيابهم ولم يجرأوا على ذبحه لكنهم املوا ان يقبضوا عليه عادم القوة كانه في شبكة

الفصل الثالث عشر

المزاريق في العلبقة

قد خرج من قرية اوجيجي جماعة من الافريقيين يرأسهم عربي متكبر حاملين بنادق وأصفاداً (قيوداً حديدية) اما لفنجستون الذي كان نائماً في شرفة (فراندة) بيته الصغير فكان قد استرجع صحته قليلاً وبكل حزن قد رآهم عند مرورهم بحملة الرقيق التي قد غزوها

اما وجهه فكان مملوءاً غضوناً بسبب آلام الحميات التي انتابته مائة مرة ومرة وكان مدبوغاً بسبب الشمس الحارة وكان يظهر على فمه علامة العبوسة ويقول بصوت التصميم انه متى عادت اليّ صحتي لا انثني عن عملي مهما كان المقاومون ثم ابتسم عند ما رأى شومه رفيقه الامين قد احضر له فنجاناً من الشاي لينعش به سيده

وعند ما خيم الغسق سمع اصوات الأوامر القاسية وقرقعة السياط وكان ذلك ان عربياً آخر غير الاول كان راجعاً من غزوته ومعه عشرات من الرقيق التعساء مسوقين سوق الانعام الى داخل

القرية. فجلس لفنجستون وتفكر في مساوئ افريقيا التعيسة وفكر في التوجه غرباً الى بلاد مانيوما المجهولة ليرى هل اذا كان لوالابا الذي ذكرناه في ما مر الذي يجري من الطرف الشمالي من مويرو المكتشفة حديثاً هو نهر الكونغو او النيل. وقد سمع اشاعات مكررة عن الرئيس الكبير الذي يحكم البلاد التي على النهر وعزم على السفر ليراه وكان يعلم انه متى وجد منابع النيل المجهولة فحينئذ كل العا يستمع له ورغب في ان يخبر العالم عن مسألة تجارة الرقيق

فقام بكل مشقة لانه كان لا يزال ضعيفاً بسبب الحمى واخذ قارباً هو ورفاقه وعبر بحيرة تنغنيكا وقذفوا طول الليل ورسوا في الصباح على جزيرة واشعلوا ناراً وطبخوا فطورهم ونزلوا القوارب ثانية ثم بعد ما مكثوا برهة قليلة على جزيرة اخرى وصلوا الى الشاطئ الغربي ولما رسوا خرجوا ومشوا في غابة مكشوفة وخاضوا انهاراً مياهها الى الركب

ثم وصلوا الى جماعة قناصين من اهل مانيوما فكانوا يصطادون الحيوانات الكبيرة كالافيال والجاموس بالسهام الكبيرة الحادة اما الحيوانات الصغيرة فيصطادونها بسهام من الحطب الصلب ومكث بين هؤلاء القوم في قراهم بين الجبال واغرب ما رأى في تلك

الاراضي الجميلة ذات الجبال الشاهقة والاشجار الهائلة والوهاد العميقة هو السوكو — وهذا نوع من النسناس البري جميل المنظر نوعاً يضرب على صدره كضرب الطبل ويا كل الموز ويبني اوكاره في الاشجار ويسرق الاطفال البشرية ويحملها الى وكره ويستطيع أن يسحق عظام الرجال اذا ما امسكهم بمسكته المريعة ورآه لفنجستون انه يقضم اصابع ايديهم وارجلهم عندما يدافع عن حياته لينجو منهم

وقد اهديت سوكو صغيرة الى لفنجستون وسرعان ما تعلقت به واحبته وتصيح مرحبة به عندما تراه وتبكي اذا لم يشأ ان يحملها وكانت كطفل صغير وكانت حينما تنام تغطي نفسها بحصير وحينما تستيقظ تمسح وجهها بورق الشجر بدل المنشفة (الفوطة)

وهو في الغابة كان يرى حوله القرود تثرثر وهي متسلقة فوق الاعشاب الملتفة السميكة بقدر زنجير المركب ويرى الطيور البراقة وهي تطير من شجرة الى اخرى بين الاثمار البرية التي حجمها قدر رأس الطفل ولما كان يدخل القرية كان يتجمع القوم حوله وكلهم موشومون بالاهلة والتماسيح ويتفرجون عليه كانه حيوان غريب في معرض الوحوش الغريبة

ووجد ان اهالي مانيوما كلهم يعاملونه باللطف الا في الجهات

التي كان فيها العربان او اسراهم مع ذلك كانت الحروب قائمة بين قبائلهم على الدوام

وتقرحت قدما لفنجستون بقروح رديئة فمنعته عن المشي وهذه أول مرة خانته قدماه فيها مع انه قد مشى بهما الوفاً من الاميال فاقعده ذلك عن المشي وبقي مدة ثمانين يوماً في مكان واحد في كوخ وكان قد تركه كل رفاقه ما عدا ثلاثة منهم وهم سوسي وشومه وجاردنر ومع ذلك كان يلتذ بالجلوس تحت شجرة رافعاً مظلته فوق رأسه اثناء هطول المطر ويشرب من ماء المطر ليروي غليله ويصغي لصوت صفدعة الشجر الصغيرة الخضراء وهي جالسة على ورقة من اوراق الشجر وتغرد كعصفور

ولما سار متقدماً ووصل الى بمبرّى وهي قرية بقرب لواما احد روافد نهر لوالابا رأى زمرة من العبيد الذين كانوا قد اسروا في الجانب الآخر من النهر ورأى الغلمان الاسرى يسيرون بقوة عجيبة ولكنهم عند ما يمرون بقرية من القرى يطرق مسامعهم صوت الرقص والطبل فيتذكرون اوطانهم وحينئذ يتنهدون وتضعف قلوبهم وقد كتب لفنجستون في يوميته عن ذلك قائلا — ان قلبي متوجع كمداً على الدماء البريئة التي تذهب ضحية النخاسة

وحدث ان احتشد سوق على شواطئ لوالابا نيانغوا ذات صباح لامع اشتد حره وسكن ريحه وامتلأ النهر بالزوارق المحملة بنساء المانيوماجالبين الى السوق سلالاً مملوءة اثماراً وطيوراً ودقيقاً وخضروات وملحاً وفلفلاً فقد اتوا بطريق النهر والغابة حتى صار في السوق نحو الف وخمسماية منهن يبعن ويشترين وحولهن اولادهن واقرباؤهن وكانت البنات الصغيرات يبعن كؤوساً مملوءة ماء للعطاش في السوق وكان لفنجستون يمشي في وسطهم متمتعاً برؤية الجماهير وضوضائهم وسماع صياح الديوك وصراخ الخنازير وضحك الغلمان وهو في هذه الحال لم يشعر الا وقد ذعر بطلقة عيار ناري وصرخة تشق الهواء فالتفت ورأى ثلاثة خدم من تجار الرقيق يطلقون النار في وسط ذلك الشعب المحتشد. وفي الحال انقلب الضحك بصياح الذعر والخوف عند ما طرحت النساء بضائعهن واندفعن الى الزوارق وبعض النساء والرجال المجروحين بالرصاص قفزوا في القوارب وفي النهر ليعوموا الى الجانب الآخر منه وكان على بعد نحو ثلاثة اميال لان نهر ليوبالا كان متسعاً جداً في تلك البقعة ولكن من الاسف ان الرؤوس التي كانت ظاهرة فوق وجه المياه قد غطست. فعندئذ تناول لفنجستون مسدسه وهو في شدة الغيظ ليطلق على اولئك

القتلة الا انه عاد وأمسك يده لانه لو كان قد اطلق عليهم لكان قتل ولاشك. نعم انه لم يخش الموت الا انه عمل شيئاً اهم من ذلك وهو انه قد كتب بحوادث ذلك الصباح الى انكلترا وعند ما وصلت تلك الاخبار الى هناك اقامت العالم وأقعدته اكثر من كل ما عمل لابطال تجارة الرقيق الممقوتة ومحقها من تحت الشمس

وفي الصباح التالي قبل قيامه للرجوع شرقاً الى اوجيجي وقف على رابية وعد سبع عشرة قرية مشتعلة بالنار بايدي اولئك الاوغاد الاسافل

وفي اثناء رجوعه هو ورجاله كانوا مارين ذات يوم في طريق ضيق وعلى جانبه شجيرات كثيفة تحتَ في مرافقهم اثناء سيرهم وبغتة شعروا بحفيف بين الاوراق لان مزراقاً كبيراً رمي في وسط الشجيرات وكشط ظهر لفنجستون وانغرز في الارض ورشق مزراق آخر من وراء شجرة بيد خفية وانغرز في الارض بعيداً عنه بقدم الى الامام. وسبب ذلك ان متوحشو مانيوما اذ ظنوا ان لفنجستون هو تاجر رقيق الذي قد قتل الناس واحرق القرى كمنوا له وعزموا ان يقتلوا افضل صديق لهم في كل العالم

سار لفنجستون ورأى امامه شجرة هائلة مزروعة على رابية

نحل وعلو تلك الرابية عشرين قدماً وكانت النار مشتعلة في جذورها فأضعفت جذعها فسمع قرقعة وتطلع فرأى الشجرة تهتز وتتماوج في الريح ثم وقعت نحوه فتحول وركض الى الوراء فسقط ذلك الجذع الكبير وخبط في الارض وتكسرت الاغصان بقرقعة هائلة وكان ذلك على البعد من ظهر لفنجستون بمسافة ياردة واحدة فغطته بسحابة من الغبار فهذه هي المرة الثالثة التي نجا فيها في ذلك اليوم بعد ما كان بينه وبين الموت قيد شعرة

وقد اقترب اليه رفاقه الذين كانوا مفترقين عنه وقالوا له «سلام سلام» انك ستنهي عملك رغماً عن هؤلاء القوم ورغماً عن اي شيء آخر. فقال لفنجستون لقد صرفنا خمس ساعات نبارز وننازل ويكمنون لنا حملة المزاريق الذين ظنوا انهم متى قتلوني ينتقمون عن موت كل اقاربهم فقد كنا ننتظر ان يرشق علينا مزراق من كل فتحة في وسط النباتات المشتبكة وفي كل دقيقة كنا ننتظر ان نسمع حفيفاً بين الاعشاب الذي ينبئنا بانقضاض حربة قاتلة علينا حقاً لقد تعبت كثيراً من تراكم الاخطار وتضييقها علي على الدوام وان سكوتي ليس بسالة واقدام مني بل (كما يحدث للعساكر في ساحة الحرب) صرت عديم المبالاة كلية سواء قتلت ام لا

ان لفنجستون قد صار الآن مريضاً جداً لكنه جاهد وكافح كثيراً في تطوافه فوق سلسلة الجبال . وفي الادغال الكثيفة وفي عبور الانهار الجارية ثم في الغابات المكشوفة حتى وصل الى نهر تنغنيكا وسمع اصوات الامواج تتكسر على شواطئه فقد ترك بلاد مانيوما ومن اقواله — «اني قد قرأت الكتاب المقدس من اوله الى آخره اربع مرات مدة وجودي في مانيوما» ووصل الى اوجيجي مضنى من الجوع والمرض وهو فقط هيكل عظام ووجد ان كل المؤونة التي امر ان ترسل له هناك قد بيعت واخذ الشريف ثمنها والشريف هذا هو مسلم تعيس خياط في ذلك الموضع . وقد قال لفنجستون في ذلك

انني في عوزي وحاجتي شعرت كاني ذلك الرجل الذي كان نازلا من اورشليم الى اريحا ووقع بين اللصوص ولم يكن لي امل بمقابلة كاهن او لاوي او سامري ان يمر عليَّ من اي ناحية لكن لما فنيت فيَّ روحي واضمحلت لآخر درجة جاء السامري الصالح واقترب الي ذلك - بان سمعنا صوت البنادق مطلقة في الهواء خارج اوجيجي فاندفع سوسي باقصى سرعة ودخل الى لفنجستون وقال وهو يلهث — انني ارى رجلاً انكليزياً ثم اندفع للخارج لمقابلة ذلك الاجنبي

وكان رجل ابيض في مقدمة قافلة افريقية تتبعه قادماً نحو القرية وبجانبه سوداني ضخم الجثة حاملاً راية الولايات المتحدة الاميركانية وهي مفروطة وهذا الرجل الابيض كان قد سافر الوفاً من الاميال مفتشاً على لفنجستون لان العالم اجمع كان منتظراً ان يسمع اخباراً عنه مدة سنوات

ولما سار نحو القرية رأى الذي كان يبحث عنه — لفنجستون مكتشف الطريق (وقال الرجل الابيض) انني لما اقتربت اليه رأيته نحيلاً مصفراً كاسف الوجه مبيض العوارض والشاربين عليه قبعة من القماش الازرق وعصابتها ذهبية باهتة وحولها شريطاً احمر ومرتدياً صدرية حمراء ذات اكمام وبنطلوناً رمادياً

وكان ذلك الابيض المشار اليه هو هنري مورتن ستانلي الشاب الويلسي وعند ما رأى لفنجستون تاق ان يعانقه لكنه ضبط نفسه ومشى نحوه متمهلاً ورفع قبعته وقال — هل انت الدكتور لفنجسون على ما اظن فاجابه بابتسامة رافعاً قبعته — نعم انا هو . وكان قد مضى عليه وقتئذ خمس سنوات لم ير فيها وجهاً ابيض فتصافحا باليدين — قد تصافحت اميركا وبريطانيا معاً في قلب افريقيا الوسطى

ولما دخلا بيت لفنجستون الصغير سلمه ستانلي كيساً مملوءاً

من المكاتيب مرسلة من انكلترا وهي اولى المكاتيب التي وصلته منذ سنين مضت فانتقى منها لفنجستون مكتوبين معنونين بخط اليد على الغلاف وترك مكاتيب الحكومة والعلماء مقفلة كما هي في الكيس وتلألأ وجهه عند ما قرأ المكتوبين لانهما كانا مرسلين من اولاده

الفصل الرابع عشر

الجولة الاخيرة

لما جلس لفنجستون وستانلي الواحد بجانب الآخر تحت ظل ذلك السقف في اوجيجي وتحادثا معاً قال لفنجستون انك قد احضرت اليَّ حياة جديدة . وكرر هذه العبارة مراراً

وكان في الاول يأكل اكلتين قليلتي المقدار اما الآن فصار يأكل اربع مرات اكلاً وافراً ولما كان يخبر ستانلي اخبار مخاطراته الغريبة والمؤثرة كنت تراه يضحك ضحكاً مفرطاً يهتز له من قمة رأسه الى اخمص قدمه ويظهر المرح والسرور من مأقي عينيه

وعند غروب الشمس وراء الجبال التي في عبر البحيرة قاما وتمشيا فوق الشاطئ صعوداً وهبوطاً يتنفسان النسيم البليل الذي يهب على الماء ويلاحظان الامواج تضرب على الشاطئ الابيض الاملس وهناك قال ستانلي للفنجستون انه كان قد وصله رسالة برقية على حين فجأة من الشاب بنّت صاحب الجريدة المسماة « بشير نيويورك » "New York Herald" يقول فيها — توجه الى اواسط

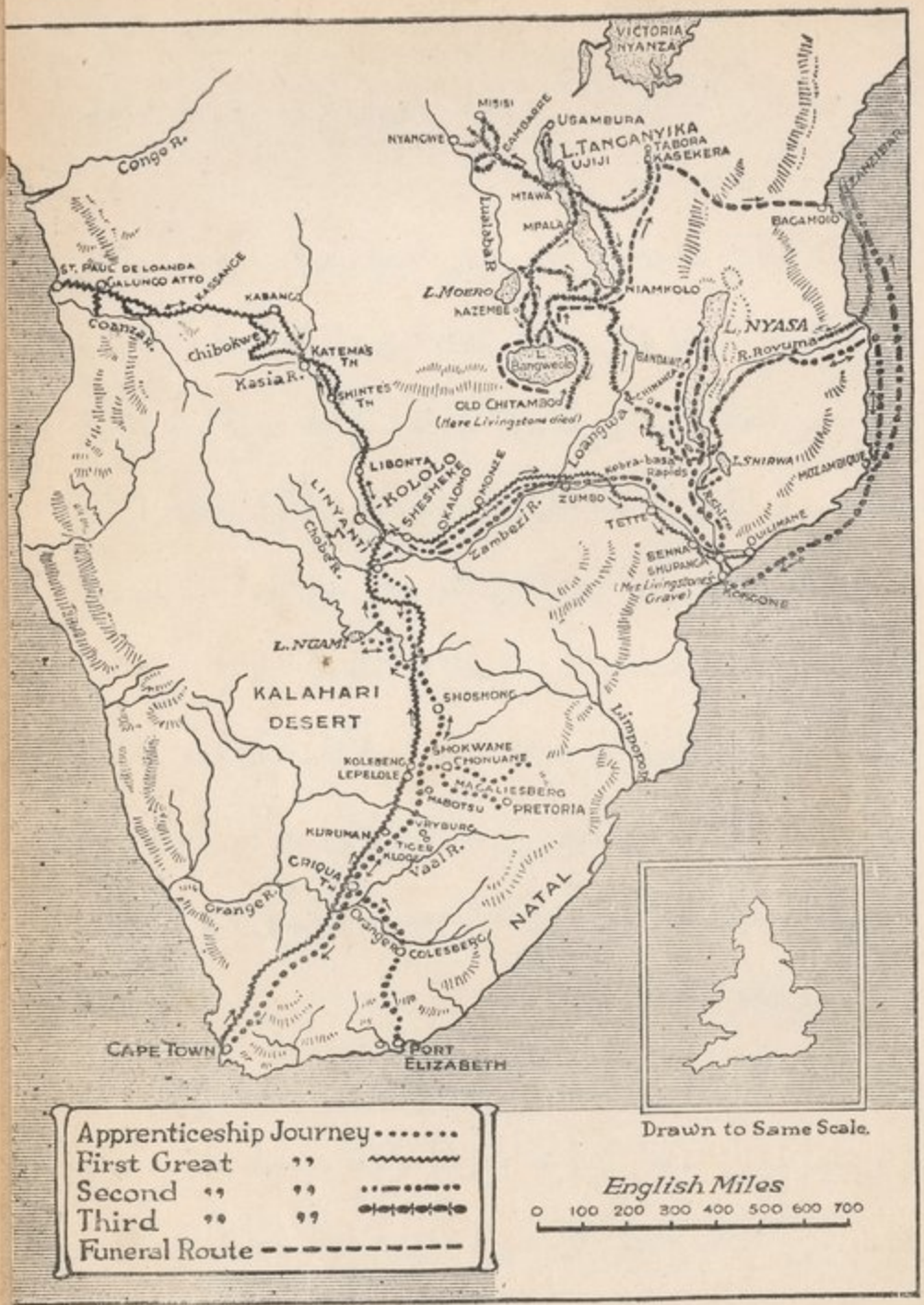

خارتة تبين رحلات لفنجستون الثلاث والطريق التي سار فيها حاملو جثته

افريقيا ولا تبال بالنفقات بل انفق مهما تنفق في البحث على لفنجستون وانظر اذا كان حياً

ولما كانا في ساحة سوق اوجيجي ضحكا وتسامرا كثيراً واخبر احدهما الآخر (وهما يتفرسان في تلك البحيرة الواسعة ذات الماء الفضي) عن المخاطرات التي قاساها ثم رأوا غمامة من الغبار قامت بسبب سوق الماعز الثاغية (المأمئة) والمواشي الجائرة (الناعرة) الى ما داخل السوق ورأوا الصيادين خارجين من القوارب ليبيعوا صيدهم واكواماً من انياب الفيل وسلالاً مملوءة اعقاداً من الخرز وملحاً وفاكهة تبيعها نساء افريقيات مسنات بقّاقات (كثيرات اللغط)

بينما الرجال كانوا واقفين متكئين على حرابهم والاولاد يركضون داخلين وخارجين ويكافحون بعضهم بعضاً ويلعبون بعضهم مع بعض ويأكلون الموز

وذات يوم ابحرا في البحيرة في زورق كبير وهو عبارة عن جزع شجرة من اشجار المفولا مفرغاً وكان به ستة عشر مقذافاً ومئات من انياب الفيل على ظهره وكان العسنت كامناً في اعماق البحيرة الهادئة فصعد الى سطح الماء لكي يتنفس وينفخ الماء بجوار

الزورق ثم يغوص ثانية وكرر هذا العمل كانه يلعب اللعبة التي يدعوها العوام (الاستغمايه)

وفي الليل كان يرسو لفنجستون وستانلي على البر وتنصب لهما الخيام وينامان وفي الصباح عندما يرتفع الضباب فوق سطح البحيرة من حرارة الشمس تُفك الخيام ثانية. ونظرا الافريقيين يصيدون من قواربهم في خلجان تنغنيكا المفرحة تحت ظل التلال البهجة امام قراهم المتأنقة بالبساتين المنظمة وبحقول الغلال وكنت ترى على الشاطئ الاولاد السمر يلعبون في الماء ويعومون بدون خوف وامهاتهم تراقبهم. ومرة عند ما ارادوا ان يرسوا في مكان انهالت عليهم الحجارة فعزم ستانلي ان يطلق بندقيته على اولئك المتوحشين لكي يخيفهم لكن لفنجستون اظهر له انه لا يرغب هذا العمل وأخبره كم من المرار هو نفسه قد احتمل مثل هذه المعاملة وانه وجد ان هذه المعاملة مناسبة لان تكون جزاء المعاملة الفظة التي يعاملهم بها العرب تجار الرقيق

ثم ابعدوا عن تلك البقعة ورسوا على رأس رملي وجهزوا عشاءهم ولكن وهم يأكلون في غسق الغروب رأوا زمراً من المتوحشين زاحفين اليهم من كل ناحية فاسرعوا ونزلوا الزورق وجلسوا

يقذفون مع المقذفين واكتسحوا بعيداً ولم يتأخروا دقيقة لانهم تطلعوا في العتمة ورأوا اشباحاً سوداء تزحف من فوق الصخور الى المكان الرملي الذي قد تركوه حالاً

فساروا الى جهة الشمال واصيب ستانلي بالحمى وكان لفنجستون يعالجه ويضع يديه الباردتين على جبهته الى ان نال العافية

ومرة بينما كان ستانلي نائماً اثناء حر النهار ايقظه صياح قائلاً انهض ياسيدي مسرعاً ها الآن قد بدأ حرب فنهض بسرعة وتأبط حمالة مسدسه وخرج واذا بجماعة من الاهالي في حالة الغضب والهياج ومعهم شاب سكران يهددونهم بقتلهم جميعاً ظانين انهم من العربان وقاصدين ان ينتقموا لقتلاهم الذين قتلهم العرب من قبيلتهم

اما الدكتور لفنجستون الذي كان قد ذهب ومعه بوصلته قد رجع في تلك الآونة ومعه سوسي وشومه فعند ما صار عند حافة التل ظهر له ان القتال محتم لا بد منه لكنه كشف عن ذراعه وتبسم واقترب اليهم واراهم جلده الابيض قائلاً — انظروا انا لست عربياً لكنني رجل ابيض. وبهذه الكيفية اسكت الاهالي الهائجين وهدأهم فسمحوا له ولرفيقه ستانلي ان يمضوا بسلام . فبعد ما نزلوا البحيرة ووصلوا الى اوجيمي صرفوا عيد الميلاد هناك ثم استأنفوا السفر

في زورقين الى انيانيمبى حيث بقي لفنجستون بعد ذهاب ستانلي الى ساحل البحر وانتظر الى ان ارسل له مؤونة وحمالين في غاية الاستقامة ليرافقوا ذلك الرحالة في سفرته الاخيرة

نعم ان ستانلي قد قال مراراً وتكراراً للفنجستون ان يمضي معه الى الوطن قائلاً ان عائلتك مشتاقة كثيراً ان تراك اما لفنجستون فاجابه قائلا — كلا بل يجب ان انهي مشروعي وكتب في يوميته تلك العبارات التي ارسلت بها له ابنته أجنس في المكتوب الاخير قائلة — «وان كنت اود من قلبي رجوعك الى الوطن لكنني افضل بالحري ان تتم عملك حسبما تبتغي عن ان ترجع فقط لكي تسر خاطري» وعلق على ذلك مفتخراً قائلا — «لقد قالت عزيزتي نانسي قول الصواب ويالها من شهامة يفتخر بها» ان البُطل يتكلم بصوت خافت اما الجمال فيتكلم بصوت جهوري فما هذه الشبلة الا من ذاك الاسد لتحل بركتي عليها وعلى بقية اخوتها جميعاً

وصار الجميع في اوجيجي في حالة ضوضاء وهياج حالما اقلعت الزوارق ولفنجستون واقف في المقدمة والعلم البريطاني يخفق على قصبة عالية من القنا في مؤخر القارب وتبعه ستانلي بالعلم ذي النجوم والخطوط الجميلة خافقاً من فوق قصبة طويلة وقال لفنجستون مازحاً

اني ساقطع اطول نخلة اراها في طريقي واعملها قضيباً للراية البريطانية لكي تخفق اعلى من راية الولايات المتحدة

وقال ستانلي انني لا اتمالك نفسي من الاعجاب والفخر كلما ارى علمي الامتين الانجلوسكسونيتين يشخصان هاتين الامتين اليوم في هذه البحيرة الكبيرة ويحاربان الطبيعة الوحشية والبربرية القاسية بل (النوتية) انفسهم الذين في القارب امتلأوا حماساً فصاروا يجرون ويقفزون ويصيحون وينشدون حتى يرشح عرقهم ويضحكون ويزمرون وينفخون اشداقهم. وكان ستانلي قد رسم طريقاً الى انيانيمبي ترشد الانسان ان يتجنب القبائل الخطرة التي قابلها في طريقه ولذلك كنت ترى ان النوتية ينشدون اثناء تقذيفهم اناشيد تبجيل في هذا العمل من ضمنها قولهم

لقد زحلقنا قبيلة الواكا . ها ! ها !

وقبيلة الوافنزا لا تعود تضايقنا . هو ! هو !

وقبيلة الميوريفو لا تعود تأخذ منا ثياباً. هاي ! هاي !

وقبيلة كيالا لا تعود ترى وجوهنا . هي ! هي !

وبعد ماينشدون هكذا يغرقون في الضحك ويقذفون بقوة هائلة حتى تهتز الزوارق من المؤخر الى المقدم وبينما هم يسرعون السير

في البحيرة كان أهالي بلادهم الموجودون على الشاطئ بمعيزهم وغنمهم وحميرهم يشتركون معهم في الفرح وفي غناء الاناشيد

وقد قابلهم اهالي بلادهم مرة ثانية عند ملتقى فرعي نهر لما تركوا في البحيرة وساروا شرقاً الى انيانيمي ورأوا في طريقهم قطعان الزرافة البهجة الجميلة التي علوها يبلغ سبع عشرة قدماً وهي ترعى اوراق الاشجار العالية . واخيراً وصلوا القرية وجاء وقت افتراقهما عن بعضهما وقال ستانلي عن ذلك في ما بعد اننا قد تناولنا الفطور معاً ونحن متكدران فانا لم استطع ان آكل لان قلبي كان مفعماً ورفيقي كذلك وظهر انه ليس له شهية للاكل ووجدنا ثم شغلاً لنفعله حتى يطيل مدة مكوثنا معاً ولم اسافر في الساعة الثامنة صباحاً كما كنت افتكر بل تأخرت الى الساعة الخامسة بعد الظهر . اخيراً تصافحا معاً وحيّ الواحد الآخر ولم يستطع ستانلي ذلك السائح الجسور ان يحجز ذرف دموعه فالتفت ليتملى بالنظرة الاخيرة من ذلك البطل المرتدي بثيابه الرمادية اما لفنجستون فاحنى رأسه ورجع بخطوات ثابتة وعزم متين لينهي مشروعه وحيداً . ولم يره رجل ابيض بعد ذلك قط. وانتظر في انيانيمبي حتى تصله المؤونة والحمالين الذين وعده بهم استانلي. فمضى يوم بعد آخر ولم ترد له اخبار بالمرة

ولاحظ لفنجستون هناك عصافير الهوايدا وهي تزغط افراخها فكل فرخ يضع رأسه على ناحية بينما يدخل ابوه منقاره في فيه من ثم ترفع الافراخ ريشة كما يرفع الطفل دميته (عروسة اللعب) ويطلب من البقية ان تعمل مثله كأنه يقول لها — هلم نلعب ونبني بيوتنا الصغيرة

ومتع نفسه ايضاً برؤية اولاد الافريقيين يلعبون بالقسي والسهام الصغيرة فيطلقون سهامهم على الجراد الذي يحط على الارض ويعملون بنادق للعب مصنوعة من البوص الفارسي وتقوم بما يشبه زناد البندقية وزنبركها (زنبلك) وترتفع منها سحابة من التراب بدلاً من الدخان واحياناً يعملون بندقية بروحين من الطين ويقوم منها زغب القطن (الكتكات) بدلاً من الدخان

وفي مدة الخمسة اشهر التي انتظرها في انيانيمبي كتب لفنجستون جواباً الى جريدة «بشير نيويورك» المشار اليها في ما سبق قال فيه عن تجارة الرقيق تلك الكلمات اللداغة التي ايقظت قلوب العالم وهي قوله :—

« ان كل ما استطيع قوله في وحدتي هو — لتحل بركة الله

الوافرة على كل شخص سواء كان اميريكي او انكليزي او تركي يقدم اية مساعدة لشفاء جرح العالم الخبيث هذا»

وذات يوم وقف منتصباً والتلهف بادٍ على وجهه عند ما رأى صف جماعة من الافريقيين قادمين نحوه واذا هم الحمالون الذين قد استأجرهم ستانلي وارسلهم الى لفنجستون وعندئذ انتهى انتظاره المتعب

ثم شرعوا في الرحلة الاخيرة الطويلة والرجال يصيحون والبهائم تجأر وكان الغرض من هذه الرحلة ان يكتشفوا نهر لوپالا ويعرفوا هل هو منبع النيل او الكونغو فساروا غرباً الى تنغنيكا وعند مرورهم رأوا حمر الوحش تجري هاربة ومن حين الى آخر كانوا يسمعون زئير الاسود يملأ الادغال

ثم سافروا الى الجنوب وبعد عيد الميلاد في سنة ١٨٧٢ دخلوا في المستنقعات المظلمة والمخيفة الواقعة حول بحيرة بنغويولو وهطل المطر بدون انقطاع على رؤوسهم وعانى لفنجستون آلاماً مبرحة في مرضه وصار يضعف يوماً بعد آخر واخيراً صار خائر القوى للغاية حتى لا يستطيع الخوض وكان تارة يحمله سوسي على منكبيه واخرى يحمله شومه او حمالون آخرون اثناء عبورهم الانهار ويخوضون به والماء

الى ذقونهم . ثم فارقته قوته حتى صار لا يستطيع الجلوس وعمل له حمالوه الامناء عنقريباً (سريراً سودانياً) بدون ارجل بل يعلق على قضيب بالحبال ويحمل على الاكتاف وبما ان كل هزة في العنقريب كانت تؤلم لفنجستون كثيراً لذلك كان يحمله الثلاثة الافريقيون البواسل وهم سوسي وشـومه ويعقوب وينرايت ويخوضون به المستنقعات ويسيرون في المسالك الضيقة التي في وسط الاعشاب الطويلة

ووجدنا في يوميته مكتوباً قوله — « لقد تعبت الى التمام فانتظروا — اتعافى — ارسلوا اشتروا لبن ماعز . اننا على شواطئ موليلامو » وهذه الكلمات هي آخر ما وجد مكتوباً في يوميته .

ثم عبروا نهر موليلامو ثم ساروا بكل مهل الى قرية شيتامبو في ايلالا وكانوا يستريحون اثناء سيرهم بين آونة واخرى

ثم صـار صوت مرات متعاقبة من العنقريب فانحنى شومه ليتسمع ماذا يقول ابوه (لفنجستون) وما هي بغيته فسمعه يقول بصوت خافت — قفوا وأنزلوني فأنزلوه ووضعوه تحت خارجة احد الاكواخ الى ان يكمل بناء الكوخ الجديد الذي يبنونه لاجله. فاتى سكان القرية وتطلعوا في وجه ذلك الرحالة المضنى متكئين

على قسيهم ورماحهم وكانوا قد سمعوا عنه (منذ سنين مضت من اناس عاينوه وعرفوا احواله) — انه رجل صالح ولا يضرب حماليه وليس له عبيد ارقاء بل هو ضد الاسترقاق — وقد كمل بناء الكوخ وسنده سوسي وشومه وادخلاه الكوخ واضجعاه ثم قال — هات ساعتي يا سوسي. فامسك سوسي الساعة ووضعها بين اصابع سيده فتناول لفنجستون المفتاح وملأها.

ثم هجم الليل فاشعلوا ناراً خارج الكوخ فاضاءت داخله ودعي سوسي عند الساعة الحادية عشرة — وكان عقل لفنجستون سائحاً نحو النهر العظيم الذي صمم على الوصول اليه — فسأل سوسي قائلاً هل هذا هو نهر لواپولا؟ فاجابه سوسي بكل هدو — كلا نحن الآن في قرية شيتامبو بقرب موليلامو ثم حدث سكوت تام. ثم سمع الصوت الضعيف قائلاً — كم يوم بيننا وبين لواپولا؟ مما يدل على ان مكتشف الطريق هذا كان لا يزال تائقاً ان يصل الى النهر الذي يبتغيه. فاجابه سوسي قائلا ثلاثة ايام على ما اظن ياسيدي. فتنهد لفنجستون

ثم رجع سوسي الى كوخه وبقي غلام اسمه ماجوارا ساهراً لمراقبة لفنجستون وبعد نحو ساعه نادى الغلام على سوسي فجاء هذا

ممسكاً شمعة وعلبة الدواء وقدمها الى لفنجستون وساعده في انتقاء الدواء الذي يريده . فقال لفنجستون متلجلجاً — حسناً — امض الآن . وقبل الفجر نادى ماجوارا على سوسي قائلاً — تعال الى ايننا ياسوسي لاني خائف. فنادى على شومه وثلاثة آخرين ودخلوا الكوخ وعلى نور الشمعة الضئيل رأوا سيدهم راكعاً منحنياً في سريره ورأسه مدفونة في يديه على الوسادة (المخدة) فانتظروا لانهم ظنوا انه يصلي لكن الصلاة قد انتهت ونال الرحالة مكتشف الطريق بغيته لانه عبر النهر العظيم — نهر هذه الحياة

وبينما هم واقفين بجانب النار المضمحلة عند صياح الديك وبزوغ فجر النهار رسموا الخطة التي يسيرون عليها وهم يتكلمون معاً بصوت واطئ ومحبتهم له جعلتهم ان يعملوا عملاً يدل على بطولتهم وشهامتهم وامانتهم له وهو انهم نزعوا قلبه ودفنوه تحت شجرة مفولا بجوار قرية شيتامبو وحنطوا جثته ولفوها في لفائف متعددة وربطوها في خشبة كالمدرة وحملوها على اكتافهم . فقائدهم الذي لم يعد قادراً على ان يرشدهم بعد حملوه وعبروا به افريقيا

ان لفنجستون قد ساح سياحته الاخيرة ومع ذلك فانه قد سافر بعد موته سفرة اغرب من كل سفرته الماضية ويحق لنا ان نخلد

ذكر اولئك الخمسة الاشخاص الافريقيين الذين كانوا معه منذ ما قام من زنجبار قبل موته بثمان سنوات وعاشوا معه بكل امانة الى الموت وهم سوسي وشومه وعمودا وابرام ومبروكي ومعهم يعقوب وينرايت الامين

فحملوه في المستنقعات والانهار وفي الغابات والادغال وفوق الجبال وفي الوديان وعبروا به نهر لواپولا حيث كان اتساعه اربعة اميال واقتحموا الجوع والعطش ورماح الاعداء وبنادقهم لاجل خاطره

وفيما هم مقتربون من الشاطئ الشرقي وجدوا الاهالي خارجين على طول الطريق يصدونهم عن المرور في ارضهم وهم حاملون الجثة ولذلك لفوها ايضاً حتى تبان انها كيس قطن وحزموا حزمة اخرى من الحطب لتظهر انها عين حملهم الذي كانوا حامليه اولا . فسار ستة رجال مثلما لو كانوا قاصدين انيانيمبي بحزمة الحطب وظن الاهالي بان لفنجستون قد رجع به حاملوه الى ما داخل البلاد ولذلك قد سمحوا لهم ان يمروا بكيس القطن الذي معهم الى الشاطئ غير عالمين ان كيس القطن هذا هو امانتهم الثمينة . واخيراً وصلوا الى الساحل وحملت الجثة ووضعت في طراد وأخذت الى انكلترا حيث كل العالم قد ندب موته

وربما تذكرون ان لفنجستون كان قد سبق ووقف في صحن كنيسة دير وستمنستر قبل هذا الوقت بخمس وثلاثين سنة وهو تلميذ بشعر اسود ورأسه عارية — وقف امام تماثيل الابطال والملوك والعساكر والقديسين الذين هم من سلالة الانجلوسكسونيين والآن في الثامن عشر من شهر ابريل سنة ١٨٧٤ قد دفن بين اولئك الاعاظم اعاظم سلالة الارواح الابطال

من اقوال لفنجستون المأثورة عند رجوعه المرة الثانية الى اواسط افريقيا قوله

انا راجع الى افريقيا لافتح طريقاً للتجارة والمسيحية فتحملوا العمل الذي بدأت به انني اتركه لكم

في غابة الابطال

في اوائل شهر مايو في فجر ذات يوم وتيارات نهر التيمس تجري نازلة ومياهه تدور تحت اقواس (قواسر) قنطرة وستمنستر قد كنا نسير تحت وابل المطر سحراً بين اعمدة الدير وعلى علوشاهق فوق رؤوسنا تتلاقى حجارة الاقواس التي فوق الاعمدة العالية . فهي اشبه بغابة اشجارها من الحجارة حيث ينام أبطال شعبنا جنباً الى جنب — هنالك قد وقفنا ونظرنا في بلاطة الرخام ذات الحروف

النحاسية وقرأنا ما كان مكتوباً عليها تلك العبارات التي اولها —
« بعد ما احضرته ايدي الرجال الامناء وسافروا به في البحر والبر

رقد هنا

داود لفنجستون

وبينما كنا واقفين في ممشى الدير الممتد امامنا مثل معبر في غابة قد قطعت اشجاره وتخيلنا ذلك الرحالة البطل رأينا موكباً لا نهاية له مؤلفاً من مناظر غريبة ورأينا ان ذلك الرحالة الشجاع لا يزال ممارساً شغله في حياة الذين قد جاءوا بعده

كان النهر يجري خارج الدير كما كان يجري منذ خمسة عشر قرناً عند ما كان تجار الرقيق من الرومانيين القدماء يقبضون على الغلمان الحسان ويكبلونهم بالاصفاد

ثم اغمضنا عيوننا ورأينا ذلك السوق الذي يبيعون فيه الرقيق تحت الشمس المحرقة في زنجبار عند ما شاهده لفنجستون ومقته كل المقت. اما الآن فالعبيد واسيادهم العربان فقد زالوا من الوجود وقد تشيدت في مكان سوقهم كنيسة كبرى جميلة [1] بنتها ايدي

(١) ان كنيسة زنجبار الكبرى مبنية في محل سوق الرقيق الذي زاره

الافريقيين الاحرار حجراً على حجر ومن داخل تلك الغابة الحجرية (الكنيسة) تسمع اصوات اولاد الافريقيين منشدة ومرتلة بلغتهم التي ولدوا فيها قائلين — «ارسلني لاعصب منكسري القلب لانادي للمسبيين بالعتق» وتسمع صوت رجل افريقي يقرأ من المنبر — «انا صوت صارخ في البرية اعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة» فكان روح لفنجستون مكتشف الطريق كانت تمشى في ذلك المكان

مرة كان زوج من الخيل معلقين في محراث يحرثان حقلاً بجانب احد التلال في اسكوتلاندا وكان المسك بمقبض المحراث غلام شجاع وكان يسوق المحراث في ثلام مستقيمة بينما يشتغل عقله في حقول اوسع من تلك — حقول لم تفلح بعد. ثم وقف الحصانان ليستريحا في منتصف الحقل وبينما كان الولد واقفاً في تلك البقعة تأمل في مستقبل ايامه كما يفعل كل ولد

فسأل جيمس ستيوارت نفسه قائلاً — هل يمكنني ان احرث ثلماً اطول من هذا؟ ثم قال — بمعونة الله سأصير مرسلاً. فان اسفار ذلك المرسل الرحالة قد استفزت حميته سيما الخبر عن مخاطرات رحلة

لفنجستون في زيارته لها ومذبحها مقام فوق النقطة التي كان يجلد فيها العبيد بالسياط في ذلك السوق

لفنجستون الاولى الدالة على البطولة والجسارة واخيراً جاءت الايام التي تمت فيها احلام ستيوارت فأبحر الى افريقيا وسار في ذات الطريق التي سبق الدكتور لفنجستون وسار فيها هناك

ويوجد اليوم شيخ افريقي مسن جداً اشيب الرأس ووجهه كله غضون لكبر سنه ويسير بين الاكواخ في موليبولولي في جنوب افريقيا واسمه ليشوكواني . ولكي تعرفوا من هو هذا الشيخ نقول — انه منذ نحو ثمانين سنة جاء رجل ابيض عيناه حادتان وتدلان على ما فيه من اللطف ودماثة الاخلاق ووجهه كوجه جندي باسل وجال بين اكواخ تلك القرية وفي المساء عند رجوع الرجال من الصيد وانتهاء النساء من طحن الغلة كان يجتمع اهل القرية حوله ليصغوا الى ما يكلمهم به ذلك الرجل الابيض الذي كان يخبرهم اموراً غريبة عن شخص اسمه يسوع فكان ليشوكواني هذا وقتئذ غلاماً وكان يصغي الى ما يقوله ذلك الابيض ويعيه وبعد ما نقل لفنجستون الى مقر جسده في دير وستمنستر بسنين كثيرة اتى رسل آخر الى قرية موليبولولى هذه وطلب متطوعين يتطوعون في اعمال صعبة وكان يقول لهم ان الذي يستمر في هذه الاسفار ينبغي له ان يصادف الجوع والعطش في برية كالاهاري ويصادف الوحوش الضارية في

The Tree in Africa under which Livingstone's heart was buried.

BROUGHT BY FAITHFUL HANDS
OVER LAND AND SEA
HERE RESTS
DAVID LIVINGSTONE.
MISSIONARY.
TRAVELLER.
PHILANTHROPIST.
BORN MARCH 19, 1813.
AT BLANTYRE, LANARKSHIRE
DIED MAY 1, 1873.
AT CHITAMBO'S VILLAGE, ULALA.

FOR 30 YEARS HIS LIFE WAS SPENT
IN AN UNWEARIED EFFORT
TO EVANGELIZE THE NATIVE RACES
TO EXPLORE THE UNDISCOVERED SECRETS,
TO ABOLISH THE DESOLATING SLAVE TRADE,
OF CENTRAL AFRICA,
WHERE WITH HIS LAST WORDS HE WROTE
"ALL I CAN ADD IN MY SOLITUDE IS,
MAY HEAVEN'S RICH BLESSING COME DOWN
ON EVERY ONE, AMERICAN, ENGLISH, OR TURK,
WHO WILL HELP TO HEAL
THIS OPEN SORE OF THE WORLD."

"OTHER SHEEP I HAVE, WHICH ARE NOT OF THIS FOLD:
THEM ALSO I MUST BRING, AND THEY SHALL HEAR MY VOICE."

"TANTUS AMOR VERI, NIHIL EST QUOD NOSCERE MALIM,
QUAM FLUVII CAUSAS PER SÆCULA TANTA LATENTES."

Livingstone's Tombstone in Westminter Abbey.

ذات الشجرة في اواسط افريقيا المدفون تحتها قلب لفنجستون

الحجر على قبر لفنجستون بدير وستمنستر بجوار قبر الجندي المجهول

الغابات فمن منكم يريد ان يذهب ليكرز لاولئك الاقوام الذين هم وراء تلك البرية. فكل الشبان احجموا خائفين عند ما سمعوا ذلك. ثم رفع ليشوكواني صوته وقال — انا سأذهب وانتم ايها الشبان الخائفين ستأتون وتجدون جثتي بجانب الطريق فتدفنونها وستعرفون بانني قد مت في سبيل العمل الذي دعاكم اليه المسيح ولكنكم تغافلتم عنه ولم تتمموه »

فان ليشوكواني قد تذكر ذلك الرائد البطل الذي سمعه عند ما كان غلاماً فعبر برية كالاهاري ورجع مضنى تعباً حتى ظنوا انه لا يمكن ان يعيش والآن يذهب الشبان في الطريق التي قادهم فيها ليشوكواني ويعلمون الآخرين عن طريق الخلاص

والآن يوجد فارس مسن يجلس في كرسيه ويتكئ ذراعيه على عصا من الابنوس ويتفرس في النار بعينين قد شاهدتا اكثر مما شاهد اي انسان آخر على قيد الحياة ويحكي هذه القصة التي ذكرناها في هذا الكتاب وذلك الفارس كان برفقة لفنجستون في تلك الرحلات العظيمة التي فتحت اواسط افريقيا اولاً للعالم. ومن هو هذا الفارس يا ترى ربما تذكرون مما سبق ان الدكتور كرك وهو شاب من العلماء قد سافر في ولاية زمبيزي مع لفنجستون وواجه

اخطاراً كثيرة معه وحتى اليوم يقف الانسان حائراً مقطوع النفس عند ما يسمعه يحكيها وكان غرضهما ان يفتتحا افريقيا للعالم وللمسيح وقد ركع الدكتور كرك مع لفنجستون بجانب قبر ام روبرت على على شواطئ احد انهار افريقيا حيث فشت الحمى بهيئة مريعة . ووقف الدكتور كرك مع لفنجستون عند مارشقت سهام المتوحشين فوق القارب . وقال في حديثه انك تستطيع ان تعاين بعض تلك السهام في ذلك الحائط (ثم توقف عن حديثه ليدلني عليها)

ورافق لفنجتون في الصعود على الجبال وفي الزحف في الوهاد التي بجوار شلال موروموبوا وفي عبور الشلالات وفي الوقوف امام الدخان الصائت بكل رعبة . ان الدكتور كرك رافق لفنجستون في مواجهة صياح المتوحشين وجعلاهم ان يصيروا اصدقاءهما وفي قطع قضبان الاسر من اعناق الاسرى بالمنشار وهكذا قد ادرك جمال الطبيعة الخفي كما ادرك رعب الوحشية الامور التي تجعل حكاية تلك الاسفار العجيبة في اكتشاف افريقيا من اعجب وامجد سير الابطال التي تستفز الحمية ليست السير المبنية على الخيال بل السير الصحيحة الحقيقية

وعند ما جلست مع السير جون كرك وجهاً لوجه قد تأثرت

باحترام لا يوصف نحو ذلك الفارس العائش الى هـذا اليوم الذي جاهد في تنفيذ رغائب لفنجستون الاخيرة نحو شفاء ذلك الجرح الدامي اي تجارة الرقيق

ولقد اخبرني السير جون حكايات مؤثرة عن مخاطراتهم في اكتشاف الطريق تلك المخاطرات الدالة على البطولة بكيفية اضطرتني ان أجمعكم جميعاً لتسمعوها منه . والآن لنصغي الى حكاية او اثنين من حكاياته : —

قال السير جون كرك

« انني اذكر اننا كنا نازلين نهر زمبيزي من عند شلالات فكتوريا وكان يبلغ عرض ذلك النهر اميالاً في بعض الاماكن ولكن عند مضيق كبرا باسا لم يكن عرضه اكثر من مائتي وخمسين ياردا فذهبنا الى ما وراء الشواطئ المكشوفة الى ان وصلنا الى المضايق حيث كانت هناك صخرة شاهقة على الجانبين يبلغ علوها مئات من الاقدام ووراءها منبطح صخرة ضيق ترتفع منه جبال مكسوة بالغياض وقد كنا نعرف ان شلالات موروميوا توجد على بعد منا

(وكان السير جورج قد عمل في ذلك الحين رسماً لذلك المضيق وتفضل بان اعاد لنا رسمه انظر مضيق كبرباسيا في الفصل العاشر)

ثم قال ان زورقي كان الى الامام اما لفنجستون فكان في الزورق الخلفي وكان مجرى ذلك النهر العميق يسير ببطء ولم اشعر الا وحصلت دوارة ماء عجيبة من تحت قلبت زورقي فوق الصخرة وتلك الدوارة كانت اشبه برابية من الماء التي تسببت عن قيام عسنت هائل فعندها صحت للفنجستون ان يرجع وكان زورقي قد انقلب وكل دفاتري وعددي ورسوماتي والعينات (النماذج) التي معي قد ضاعت في الماء ولم اعد اراها بعد ومن حسن حظي ان الدوامة كانت تدفع بالماء نحو الصخرة على الدوام ولذلك بقيت انا والقارب ملتصقين بها والا كنت غرقت وصار التيار يسحب في رجلي بشدة حتى انني ظننت ان تمساحاً قد امسك بها فعندئذ رسا لفنجستون الذي كان بقاربه بعيداً الى الخلف وجرني الى البر بالحبال فوجدنا اذ ذاك ان شلالات كبراباسا التي لم تكن معروفة قبلاً لا تزال امامنا على بعد

فلم نكن نقدر ان نخرج زوارقنا الى البر ولا ان نمخر بها تلك الشلالات المخيفة فبعد ما افرغنا وسق الزوارق ارجعنا الرجال بها اما نحن فتسورنا بقعة مشرفة على الشلالات ثم جعل الرجال ان يسيروا الزوارق فصعد احدها فوق الشلال ثم هبط وفي هبوطه

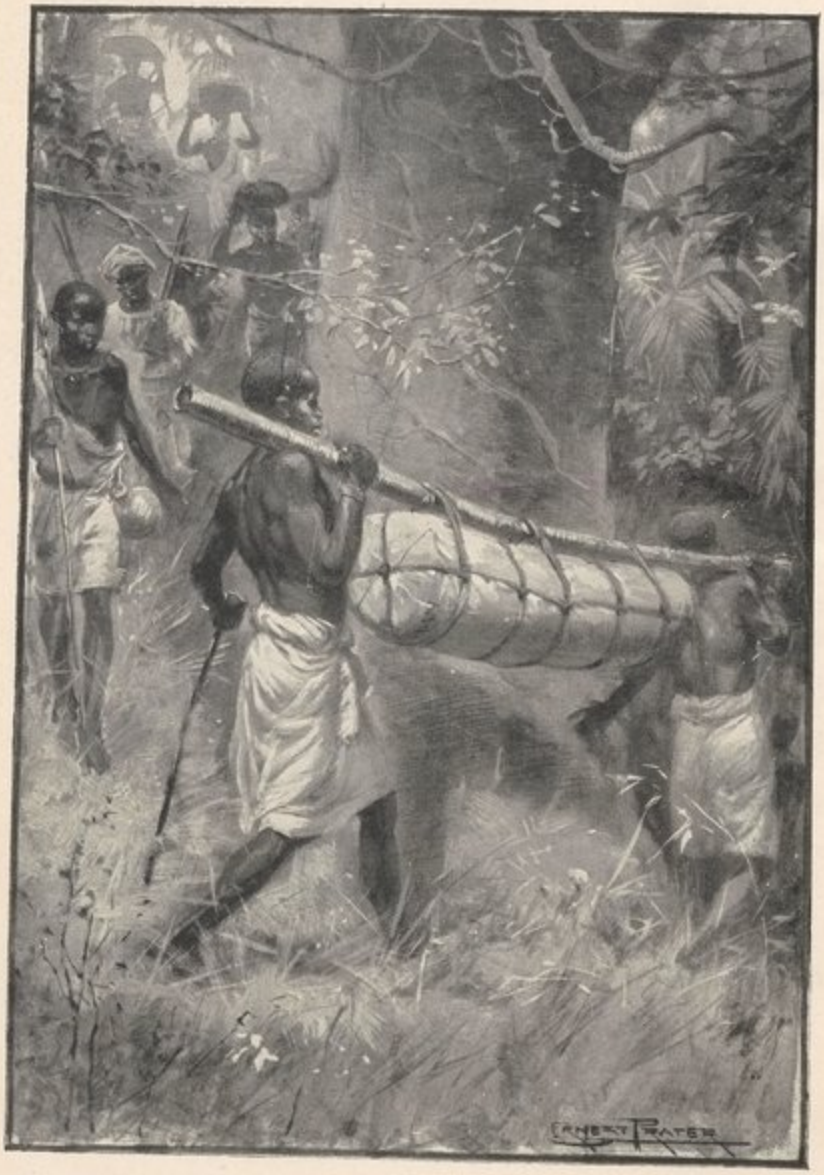

'BEARING HIM SHOULDER HIGH.'

الرجال الامناء يحملون جثة لفنجستون من اواسط افريقيا الى البحر

غاص تحت الماء ولم نعد نراه بعد وهبط زورق آخر ثم اندفع الى فوق في الهواء فانفلق الى اثنين بطوله

فلو لم تحدث حادثة انقلاب الزورق الذي كنت فيه لكانت قد جرفتنا الشلالات ولم يسمع عنا شيء مطلقاً ولم يكن ممكناً لاحد رجالنا ان يعيش بعد ليعطي خبراً عنا»

وفي اثناء تنزهنا في بستان السيرجون كرك لاحظت الزخارف الموضوعة على جانب الطريق التي كانت من جماجم الفيل والعسنت الذي كان فاتحاً فكه الاعلى حتى ظهرت رأسه الهائلة أشبه بمغارة ثم عاد فقال — نعم اني على ما اظن اني انا الشخص الوحيد الذي أخذ نخذه بين فكي العسنت ونجا فقد كنا انا ولفنجستون مسافرين في القوارب على نهر شيريه وكنت على مشفر القارب ممسكاً الدفة ولم انتبه لشيء سوى المحافظة على القارب حتى لا يندفع في وسط البوص الفارسي وكنت مريحاً ساق رجلي على حافة القارب ثم اندفع نحو ملء دلو من الماء فجأة داخل القارب ونشأ ذلك عن بروز فنطيسة عسنت فوق الماء فكان قد فتح فكيه الهائلين فكه الاسفل تحت القارب وفكه الاعلى فوق ساقي فلو كان قد اطبق فكيه لكان قد قضم القارب واخذ ساقي في فمه لكنه لسبب غير معروف ارجع

فكيه فغاص ولم نعد نراه بعد ثم التفت اليَّ احد الماكولولو الذين معنا وقال — ان نجاتك هذه من العناية الالهية وليس الا :

ثم اخبرني السير جون عن الكيفية التي انجزبها مقصده الاسمى اي ابطال تجارة الرقيق في ساحل افريقيا الشرقي دفعة واحدة فقال. —

«انني قد جمعت رؤساء العربان المستقلين الذين كان لهم السلطة المطلقة في ادارة تلك التجارة ومراقبتها وقلت لهم في حضرة السلطان — انني قد شاهدت تجارة الرقيق في البلاد التي حول البحيرات وعرفت المقصود منها وعاينت كل ما تفعلونه هناك فينبغي ان تبطل تجارة الرقيق هذه ولا بد من ذلك ثم قلت لهم الطريقة التي تلزمهم لابطال تلك التجارة — ان لي قارباً مسلحاً هناك وفي الطريق ثمانية قوارب مسلحة اخرى فان اردتم تقدم تجارتكم العادية ما خلا تجارة الرقيق واردتم دوام سلطتكم فالافضل ان نعقد اتفاقاً بيننا وان توقعوا على المعاهدة — وكنت اشدد عليهم في هذا الامر لان السلطان لم يكن يستطيع ان يوقع على المعاهدة متى كانوا معارضين ولذلك اقتربوا اليه وقالوا له « وقع على المعاهدة من اجل خاطر ربنا » فوقع السلطان وكان مجموع دخله وقتئذ سبعين الفاً من الليرات سنوياً فقال لي — لقد اخربت بيتي — فقلت له كلا لا يحصل لك اقل ضرر وهكذا

قد كان فانه بعد بضعة سنوات صار دخله من التجارة المحللة مائتي الف ليرة سنوياً. وحدث بعد ذلك انني كلما كنت اطلب منه شيئاً وكان يشك في فائدته له كنت اذكره بهذا الامر وكان يؤثر فيه دائماً.

ثم قال السير جون كرك — آه لو كان لفنجستون يرى الآن كل ما حدث وحادث الآن في افريقيا لكان يسر كل السرور. وعندئذ اضاء وجه ذلك الوزير متصوراً نفسه متنبئاً وقال — انه في الموضع الذي كان فيه سوق الرقيق في زنجبار ورأيت بعيني راسي الاسرى محتشدين فيه في ذلك الموضع عينه مشيدة كنيسة كبرى وقد زالت النخاسة فلو كان لفنجستون يرى ذلك لازداد سروراً وفرحاً.. وعلى ظني انه يمكنه ان يعاين هذا الامر من السماء»

وبهذه الكيفية قد اتم السير جون كرك تمنيات لفنجستون الواضحة في تلك الكلمات المؤثرة التي كتبها في سفرته الاخيرة — «لتحل بركة الله الغزيرة على كل من يساعد في شفاء جرح العالم الدامي هذا»

ولما ابطل سوق الرقيق من زنجبار اوعز السير جون كرك نفسه للهندي الذي كان يمتلك الارض بان يهبها للارسالية لتبني عليها كنيسة.

وقد اخبرني السير جون هذه الاخبار حتى صار ممكناً ان

افولها لكم وذاك الذي طاف مع لفنجستون يرسل اليكم هذه الرسالة قائلاً — اخبركم ايها البنين والبنات اجمعين انكم لا تجدون بطلاً بين بني البشر من هو اشجع واصدق وارق قلباً واكثر شهامة من لفنجستون فقد كنت اتطلع اليه بكل احترام ومحبته كرئيسي ولم يكن له مطامع شخصية وفكره الوحيد كان فائدة افريقيا والافريقيين لا غير وكان مرسلاً بالمعنى الصحيح وعدم وجود شيء يسمى خوفاً عنده صار ملكة غريزية فيه فكان يدخل الى اكثر الاماكن خطراً بدون اقل خوف او احجام ولم اره مرة قط متقهقراً او مظهراً اية علامة تدل على الجبن في اي حال من الاحوال

ان لفنجستون في حالة كونه الرحالة الباسل لمملكة بريطانيا في افريقيا وكمعد الطريق للمسيح في ترقية الافريقيين وتحريرهم وكمرسل جريء مقدام وكمكتشف مقحام وكالشخص الوحيد الذي قد واجه سهام العربان السامة وبنادقهم لاجل خاطر المسيح بكل بساله ولطف وكشخص قد مشى بصدر مرفوع الوفاً من الاميال في الاوحال والغابات فوق الجبال وفي مستنقعات الانهار وحيداً مقاسياً الجوع والعطش مصادماً انواع الوحوش المفترسة في البر والبحر سائراً احياناً بقدميه المقرحتين وتقدم في طريقه الى ان وصل الى

i13888997
B12514957

DATE DUE

DATE DUE

APR - 1978